الفصل الرابع

كارل ماكس والمجتمع الشيوعى

- شخصية كارل ماركس.
- مصادر الفلسفة الماركسية.
- المجتمع الشيوعى.
- الماركسية فى الميزان.

أ - تقييم موقف الماركسية من الدين.

ب - نقد موقف الماركسية من المجتمع.

شخصية كارل ماركس

«يا عمال العالم اتحدّوا».

نداء البيان الشيوعي الصادر في بروكسل عام ١٨٤٧م على لسان ماركس وصاحبه إنجلز ـ إعلاناً للصراع المرير من أجل سيادة ديكتاتورية البروليتاريا (العمال)، والقضاء على الدين والتمسك بمادية التاريخ والحياة انتظاراً لآمال معسولة في إقامة مجتمع شيوعي بسوده قانون «من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته» فمن هو كارل ماركس؟.

ولد ببلدة «تريف» الألمانية عام ١٨١٨م من أسرة يهودية، إلّا أنها تحولت إلى البروتستانية عام ١٨٢٤م نتيجة للاضطهاد الديني.

وكان أبوه محامياً عقد العزم على أن يعد ابنه ليخلفه في مهنته، فبعد أن أتم ماركس دراسته الثانوية بعث به إلى جامعة «بون» لدراسة القانون.. ولم يكن كارل ماركس حينئذ حسن السير والسلوك فقد ألقى البوليس القبض عليه وعاقبته السلطات الجامعية بسبب ما يحدثه من[1] «ضجة ليلية وعربدة» كما اشترك في مبارزة في «كولونيا» وجرى استجوابه لحيازته «أسلحة ممنوعة».

وفي عام ١٨٣٦م انتقل إلى جامعة «برلين» وكانت مركزاً كبيراً للفكر والفلسفة، وخاصة فلسفة «هيجل» فدرس القانون، واهتم بالأدب

(١) الأسس الأخلاقية للماركسية ـ أوجين كامنكا ـ ترجمة مجاهد عبد المنعم ص ٣٣.

والفلسفة، وانتمى إلى جماعة الهيلجيين اليساريين.

وفي عام ١٨٤١ حصل على الدكتوراة عن رسالة «الفرق في فلسفة الطبيعة بين ديمقريطس وأبيقور» من جامعة «أيينا» ولم يتقدم بها إلى جامعة برلين؛ ليتجنب النزعة الجديدة المعادية للهيجلية، وربما ـ كما يقول كامنكا ـ ليحصل على الدرجة العلمية بشكل أسهل.

ومع هذا فقد فشل في الحصول على عمل في الجامعة بسبب اتجاهاته المتطرفة، فاتجه إلى الصحافة وأسهم في تحرير بعض الصحف وأنشأ بعضاً آخر، ودارت مقالاته حول نقد الحكومة البروسية ومناهضتها، ولم يكن حينئذ اشتراكياً بأي معنى تستخدم فيه الكلمة.

وقضى كارل ماركس حياته لا يعرف الاستقرار والولاء لوطن ما، فكثرت تنقلاته إلى باريس ولندن وبروكسل ولاهاي إلى أن وفاه أجله عام ١٨٨٣ بعد عوز ومرض وبلاء.. فقد باع أثاثه ورهن متاعه وفقد ثلاثة من أطفاله، وضاقت زوجته ذرعاً بهذا الإملاق الرهيب حتى توفيت قبله بعامين.

ولعل أخلص أصدقائه هو «فردريك إنجلز» الذي تعرف به في باريس عام ١٨٤٤، وشاركه فكره وعمله، وواساه بماله، وتوارى عن عمد خلف ماركس ليسلط الأضواء على صديقه (ماركس) وحده.

وأشهر المؤلفات «بؤس الفلسفة» عام ١٨٤٧، والبيان الشيوعي عام ١٨٤٨، ورأس المال في جزئه الأول عام ١٨٦٧، وقد أصدر إنجلز الجزء الثاني عام ١٨٨٥، والجزء الثالث عام ١٨٩٥ حيث توفي إنجلز في نفس العام.

والصيغة العامة لأسلوب الكتابة عند ماركس يحددها «أوجين كامنكا» بقوله[1]: «ففي كتاباته تجد بناءات خاصة، ولغة مشبعة بالمصطلحات

(١) الأسس الأخلاقية للماركسية ص ١١.

الفلسفية، وجملة لا يسير أغلبها وفق قواعد النحو، وهو يتلاعب بالكلمات، ويقوم باستخدام متعمد خاص به لنعماتها وغموضها، وهو يقدم سلسلة ثم لا ينجح فى تتبعها، وهو يطرح أسئلة ثم يتركها بدون جواب».

وإلى هنا نستخلص ملامح شخصية كارل ماركس ونجملها فيما يلى:

١ - يهودي

وشعور اليهودى دائماً هو الحقد والعداء وإهدار القيم.. واليهودية وراء كل فتنة وخلف كل مؤامرة، وليس من المصادفة أن نلتقي بعبد الله ابن سبأ اليهودى وراء الفتنة الكبرى في الإسلام، وماركس اليهودى وراء الشيوعية التي تعصف بالدين والقيم، ودور كايم اليهودي وراء تفسير يبطل الفضائل والأدب فى علم الاجتماع، وفرويد اليهودي وراء إزكاء النزعة الجنسية في علم النفس، وسارتر اليهودي وراء الوجودية الحيوانية.

ومن الخير - كما يقول الأستاذ العقاد -[1] «أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلما شاع فى أوروبا مذهب جديد، ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود».

٢ - مادى

ويتضح ذلك من انضمامه للجناح اليسارى لاتباع هيجل واهتمامه بفلسفة ديمقريطس وأبيقور وكلاهما مادى: فالأول صاحب نظرية الجوهر الفرد أو المذهب الذري، وقيام الطبيعة على الآلية العمياء، والثاني قائل بأن الإدراك الحسي وحده هو المقياس الذي تقاس به الحقائق النظرية، أما الجانب العملى فمقياسه الشعور باللذة أو الألم، ولا وجود لشيء غير المادة.

---

(١) الصهيونية العالمية. ص ٩٢.

يدي طاليس في القرن السادس قبل الميلاد، حيث اعتبر الماء هو المادة الأولى التي صدرت عنها الكائنات وإليها تعود، وذهب انكسمدر إلى أن أصل الكون والكائنات مادة غير محدودة، وأعلن انكسمينس أنه الهواء، وقال الفيثاغورثيون بالعدد، واعتقد هيرقليطس أنه النار، ورده إمبدقليس إلى عناصر أربعة، واخترع ديمقريطس المذهب الذري.

وهكذا كان «طاليس» هو الذي وجه الفلسفة فيما قبل سقراط إلى أن الطبيعة لا بدّ صادرة عن أصل واحد مادي.

ثم طغت على اليونان موجة شك عارمة، وتسمى في الفكر الفلسفي بالسوفسطائية، وواصلت المسيرة الفلسفية تقدمها بفضل زعماء العصر الذهبي، وهم سقراط وأفلاطون وأرسطو، إلى أن ارتكست مرة أخرى على أيدي الشكاك من البيرونيين وأصحاب الأكاديمية الجديدة[1] من القرن الثالث إلى القرن الأول قبل الميلاد، ومن مأثور قول أحد زعمائهم: لست أدري ولست أدري أنني لا أدري!!.

وعلى أبواب الفلسفة الحديثة وقف مونتاني (١٥٣٢ ـ ١٥٩٢م) ليعلن أن الجهل المطبق بداية العلم وأن جهل العالم هو النهاية!!.

ثم كان «توماس هوبز» (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) أول الماديين المحدثين الذي اتخذ من المادية مبدأ لتفسير كل شيء، حتى الإحساس والحياة الفكرية والإرادة، وأنكر إمكان الاستدلال على وجود الله، وتلك قضية تعرضت لمد وجزر بين فلاسفة العصر الحديث غير أن أهم المذاهب هو المذهب النقدي لكانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) الذي قوض الميتافيزيقا بالمعنى المجرد، وادعى استحالة العلم الذي لا يستند إلى الحس، وزعم أن وجود الله وخلود الروح يعجز عنها العقل النظري ويسلم بها العقل العملي.

---

(١) هي أكاديمية أفلاطون عند ما رأسها «أرسيسيلوس» فغير المنهج الأفلاطوني واتجه بها إلى النزعة الشكية.

وقد علق على ذلك «شهوبنهور» (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠) بقوله[١]:

«إنه (كانت) زعزع اللاهوت القائم على العقل، ثم ترك اللاهوت الشعبي دون أن يمسه، لا بل دعمه باعتباره عقيدة مبنية على الشعور الأخلاقي.. فكأنه أدرك الخطأ الناجم من هدمه اللاهوت العقلي، فأسرع إلى اللاهوت الأخلاقي يستمد منه بعض الدعائم الواهنة المؤقتة، عسى أن يظل البناء قائماً حتى يتمكن من الهرب قبل أن تقع عليه الأنقاض».

ب ـ جذور الفكر الشيوعي:

في القرن الرابع قبل الميلاد نادى أفلاطون بثالوث شيوعي هو:

أ ـ شيوعية النساء.

ب ـ شيوعية الأولاد.

جـ ـ شيوعية الملكية.

وخصّ ذلك بحكام الدولة وحراسها حتى يتفرغوا لمهمتهم الأصلية ويستوعبوا سياسة الحكم والإدارة ويستجمعوا الشعور كله نحو غايتهم، ومما تجدر ملاحظته أن شيوعية أفلاطون لا تلتقي مع شيوعية ماركس في الهدف ولا في الوسيلة.

فشيوعية أفلاطون نوع من الزهد، لا تغير حالة الدولة الاقتصادية ولا تسعى للسيطرة على وسائل الإنتاج وأدواته ولا تطبق على كافة أفراد المجتمع، ثم إن أفلاطون إلهي يقدس المثل ويحتقر المادة ولهذا لم يحظ بتقدير الماركسيين رغم شيوعيته ووصفه أحدهم بقوله[٢]:

«وكانت آراؤه الاجتماعية والسياسية رجعية للغاية، فقد اعتبر الجمهورية الأرستقراطية لملاك العبيد، والتي يديرها الحكام الفلاسفة والجنود هي الدولة المثلى، وكان يعامل العبيد باحتقار لا يخفيه».

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة. د. أحمد أمين ـ د. زكي نجيب محمود جـ ١ ص ٣٢٠.

(٢) أصول الفلسفة الماركسية تأليف: ف ج: أفانا سيف، ترجمة حدي عبد الجواد ص ١٦.

وفي مقابل ذلك تجدهم يكبرون ديمقريطس لماديته ولنستمع[1]:

«وقد عبر ديمقريطس عن حدس بعيد النظر هو أن العالم يتألف من ذرات... وكان ديمقريطس ـ الذي انحدر من الفئات الوسطى من ملاك العبيد ـ ديمقراطياً في مجال السياسة، وكان يناصر الحِرَف والتجارة والعلم».

وقد لقبوه بأبي الشكل الأول للتفكير الجدلي المادي.

وإذا طوينا بضع قرون لنصل إلى القرن السادس بعد الميلاد، وجدنا أحد مفكري الفرس واسمه «مزدك» استطاع أن يؤسس دعوة شيوعية ويجذب إليها والد «أنو شروان» إمبراطور الفرس.

«وكان مزدك ـ كما يقول الشهرستاني ـ ينهي الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ».

ووقبل أن نتخطى الزمان والمكان لنصل إلى القرن الخامس عشر يجب أن نشير إلى وهم كبير يقع فيه كثير من الكتاب، وهو حشر دعوة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه في زمرة أصحاب الدعاوى الشيوعية أو الإشتراكية وتارة يسمونه الصحابي الشيوعي أو الصحابي الإشتراكي.!!.

إن أبا ذر أمة وحده له من سابقته في الإسلام وحسن ولائه لرسول الله ﷺ وصادق جهاده في سبيل الله وصفاء فهمه لكتاب الله ـ ما يجعله مثالاً وحده ولنتذكر قول المصطفى ﷺ:

«رَحِمَ اللَّهُ أبا ذرٍّ يمشي وحدَهُ ويموتُ وحدَهُ ويُبعثُ وحدهُ».

هذا وقد توالت عمليات النماء للبذور الشيوعية على أيدي مجموعة

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، جـ ١ ص ٢٤٩.

من أنصار الإشتراكية الخيالية ونخص منهم[1]:

١ ـ توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥م).

سياسي انجليزي عرض لأحوال انجلترا في القرن السادس عشر، ونقد النظم السائدة في أوروبا وتخيل جزيرة تقوم على شيوعية المال والتجارة ووحدة الأديان.

٢ ـ توماس كمبانيلا (١٥٦٨ ـ ١٦٣٩م):

راهب أسباني واجه الكنيسة بأفكاره الإشتراكية واحتمل في سبيلها عذاب ربع قرن أو يزيد قضاها سجناً، وجاء كتابه «مدينة الشمس» عرضا لأفكاره الاجتماعية التي تنادي بإمبراطورية عالمية تقوم على أصول العلم الطبيعي والفلسفة، ويتولاها المختصون في فروع المعرفة، وتزول منها سلطة الكنيسة والنبلاء، وتحظر الملكية الخاصة وتلغى الأسرة وتنظم العلاقات الجنسية بناء على الاعتبارات الفسيولوجية، ويفرض العمل على كل مواطن ويعطى له من إنتاجه على قدر حاجته.

٣ ـ سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥م):

أول من قال: «فلسفة واقعية» و«سياسة واقعية» اشترك في الثورتين الأمريكية والفرنسية ودعا إلى مسيحية جديدة تحقق رخاء الجماهير، وتلغي الميراث، ويتولى الحكم رجال الصناعة والعلم.

وآمن بالتقدم المطرد للإنسانية، وأكد السببية في تطور التاريخ، ولم يتجه سيمون إلى إثارة الجماهير وإنما عمل على إقناع الطبقات ومخاطبة ضمير الأمة.

---

(١) راجع:

أ ـ الإشتراكية، دكتور أحمد شلبي ص ١٠.

ب ـ الإشتراكية والشيوعية، علي أدهم ص ٥٧.

جـ ـ تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص ٣٧، ص ٣١٤.

٤ ـ روبرت أوين (١٧٧١ ـ ١٨٥٨م):

إنجليزي كتب «نظرة جديدة إلى المجتمع»، «ونداء إلى الحكومات الأوروبية»، وقد بسط فيها آراءه السياسية والاجتماعية ودعا إلى العناية الكاملة بالعمال، واهتم بالحركة التعاونية الاستهلاكية وإقامة المزارع الجماعية.

٥ ـ شارل فوريه (١٧٧٢ ـ ١٨٣٧م):

أحد آباء الشيوعية الحديثة، نفر من خداع التجارة التي مارسها أبوه (التاجر الفرنسي) واقترح أن يقسم المجتمع إلى اتحادات مهنية تكفل إشباع حاجات الناس وتدر الربح العادل وتحقق الأجر العادل.

* * *

وبعد: فإن أفكار كارل ماركس وآراءه ليست إلا تجميعاً لشتات مذاهب خلت وفلاسفة سبقوه، ومن الجدير بالذكر أن جذور الفكر المادي لم تكن لتتلاقى مع جذور الفكر الشيوعي على مدار جميع المدارس الفلسفية التاريخية، فأفلاطون الإلهي هو صاحب الثالوث الشيوعي.. ولم يكن السوفسطائيون الأول وشكاك العصر الحديث بشيوعيين.

وبهذا يكون كارل ماركس هو الذي جمع الخصمين (المادية والشيوعية) في منهج متكامل ونظرية شاملة.

جـ ـ الفلسفة الألمانية:

قامت الفلسفة الألمانية على أيدي عمالقة كبارهم:

١ ـ كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) صاحب المذهب النقدي وثنائية العقل النظري والعملي.

٢ ـ فختة (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) بمثاليته الذاتية التي تقرر أن كل ما هو موجود هو ذواتنا وأن سائر حقائق الكون هي من خلق الذات وإنتاجها.

٣ ـ شلينج (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤) بمثاليته الموضوعية التي تنتصر للطبيعة

الخارجية، وتجعلها في مرتبة واحدة مع الفكر، فالطبيعة عقل منظور، والعقل طبيعة مختفية.

٤ ـ هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) بمثاليته المطلقة التي تحدّ من التطرف الذاتي أو الموضوعي، وتصل إلى وحدة عضوية هي المطلق أو الروح الكلي الذي يتجلى في الطبيعة، وتلتقي عنده فروع الفن والدين والفلسفة.

٥ ـ شوبنهور (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠) صاحب الفلسفة التشاؤمية القائلة بأن العالم بجميع أجناسه وأنواعه وفصائله ما هو إلاّ إرادة منبعها شر وسوء وأن أعظم نعيم للناس جميعاً هو الموت.

في خضم هذه الفلسفات المتباينة عاش كارل ماركس الذي قضى شطر حياته في ألمانيا، إلاّ أن التأثير المباشر كان من فلسفة هيجل، تلك الفلسفة التي تفرعت عنها كل المتناقضات ولهذا قيل[1]:

«لكي يكتسب المرء شيئاً من المنظور التاريخي عن كير كجارد، وماركس، وعن الماركسية والوجودية، وعن البرجماتية والفلسفة التحليلية وعن الأرثوذكسية الجديدة وما يسمى بالنزعة النقدية الجديدة؛ لكي يكتسب المرء شيئاً من ذلك فلا بدّ أن يأخذ في اعتباره تأثير هيجل من حيث هو أحد العوامل الرئيسية».

ومن المعلوم أن ماركس تتلمذ على فلسفة هيجل في جامعات ألمانيا، وانضم إلى جماعة اليسار الهيجلي عن طريق تأثره بفيورباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧١) أحد تلاميذ هيجل المنشقين.

فما هو إذن الأثر الهيجلي والفيورباخي؟!.

إن فلسفة هيجل منهج ومذهب.

أما المنهج فهو الجدل أو «الديالكتيك» وهي كلمة يونانية الأصل

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ترجمة فؤاد كامل وآخرين ص ٣٩٤.

وتعني فن المناقشة والحوار، وتؤرخ فلسفياً بسقراط صاحب منهج التهكم والتوليد، ثم بأفلاطون الذي جعله حجر زاوية العلوم، ثم كان أرسطو واضع علم المنطق ومؤسس قواعده.

وفي فلسفة هيجل يعتبر الجدل محور فهم الوجود في مبدئه ومنتهاه، ويتركب من القضية ونقيضها ثم المركب منهما، والأساس الأول للوصول إلى الحقيقة هو الاعتراف باتحاد الأضداد وانسجامها، وذلك كله في إطار المطلق (الله) أو الروح الذي يسري في كل شيء ويتجلى في عمليات نمو وتقدم مستمر.

يقول هيجل[1]: «إن الفكر في عمله يجتاز خطوات ثلاثاً: فهو يبدأ بذاتية مجردة أعني بإدراكه لذاته المفردة، ثم ينتقل إلى مجال يصادف فيه ما يناقضه ويعارضه، ثم يخطو بعد ذلك إلى الوحدة التي تضمه وتضم معه أضداده التي مر بها في مرحلته الثانية، وليست تلك الحركة الثلاثية قاصرة على الفكر بل إنها تتناول العالم بأسره، وكل شيء يؤيد صحة هذا، تؤيده الطبيعة ويؤيده التاريخ والفلسفة ـ إن نجم النبات الضئيل يحمل في باطنه الدوحة العظيمة وهذه الدوحة تنسخ ذلك النجم وتثبته في آن واحد، وإن الطفل ليتضمن الرجل، وهذا ينفي ويؤيد الطفل في وقت واحد.. وإن التاريخ ليشهد كذلك بصحة هذا القانون بصورة أوسع، فالمدينة تتقدم بفعل ورد فعل بين النزعات المتضادة فعصور السلطة يتبعها عصور إباحية وفوضى ومن اتحاد الاثنين تنشأ مرحلة سامية من الحرية الدستورية».

أما المذهب فقد تناول فيه الشعب والتاريخ والفن والدين والفلسفة والدولة والقانون في حركات ثلاثية تطبيقاً لمنهجه الجدلي، وتأثراً بنصرانيته التي تؤمن بأن شخصية المسيح هي الوحدة الكاملة التي جمعت بين الألوهية والبشرية.

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة. د. أحمد أمين، د. زكي نجيب محمود جـ ٢ ص ٣٨٦.

والذي نريد أن نقوله إن ماركس أخذ منهج هيجل الجدلي وترك مذهبه، واستبدل المادة بالمطلق أو الروح الذي هو عماد فلسفة هيجل، وقد كان ماركس في هذا الاستبدال عالة على «لودفيج فيورباخ» التلميذ العاق لهيجل.. فقد اتهم مذهب الألوهية بأنه نزعة مضادة للطبيعة، ورأى أن الإنسان هو نفسه الإله الحقيقي الوحيد، وأن الإنسانية هي الكائن الأعلى وأسمى مراتب الوجود.. يقول «جيمس كولينز»[1]:

«وكان (ماركس) يتفق مع فيورباخ قلباً وقالباً على أنه بقدر ما يرفع الإنسان من شأن الله بقدر ما يحطّ من شأن نفسه... ولم يشعر ماركس بأية حاجة إلى تقييم جديد لله وللموقف الديني؛ لأنه كان يقبل عرض فيورباخ ونقده بوصفهما نهائيين في هذا الموضوع».

د ـ نظرية داروين:

قدم تشارلس داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) نظرية في التطور كان لها أهمية خاصة في تشكيل المادية الجدلية لدى ماركس الذي استند إليها في فكرة التطور والانتقال من الأدنى إلى الأعلى، ومن البسيط إلى المركب بعيداً عن الإرادة الإلهية أو العناية الربانية.

وتقوم تلك النظرية على قانون الانتخاب الطبيعي القائل بأن الحياة نشأت بمحض الاتفاق والمصادفة، فالخلية الحية أو (الأميبا) صورة متطورة من المادة البحتة غير العضوية، ثم تطورت تلك الخلية البسيطة إلى أخرى معقدة فظهرت المملكة النباتية والحيوانية، ثم ظهرت الزواحف بأنواعها، وما لبثت أن انقرضت، وقام على أنقاضها الثدييات ومن بينها الإنسان الذي تطور عن القردة العليا، والفرق بين الإنسان والحيوان فرق كمي وليس كيفياً، وما العواطف الأخلاقية إلاّ صفات ووظائف يتطلبها الانتخاب الطبيعي، ولا تختلف الحياة النفسية في الإنسان عنها في الحيوان من حيث ارتباطها بوظائف الأعضاء.

---

(١) الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

وقوانين الانتخاب الطبيعي ثلاثة هي:

١ ـ قانون الملاءمة بين الحي والبيئة الخارجية.

٢ ـ قانون استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها، بحيث تنمو الأعضاء أو تضمر أو تظهر أعضاء جديدة حسب الحاجة.

٣ ـ قانون الوراثة وهو يقضي بأن الاختلافات المكتسبة تنتقل إلى الذرية.

ومما تجدر ملاحظته أن القول بالتطور مجرد فرض يعوزه التحقيق العلمي، وكل ما ادعوه من أدلة لا يرقى به إلى مستوى النظرية المقررة، بل لقد ثبت أن أحد أنصار التطور وهو «إرنست هيكل» (١٨٣٤ ـ ١٩١٩) كان مزوّراً حين ادعى تشابه أطوار الجنين في كل من القرد والإنسان، وعندما احتفلت أكاديمية برلين بعيدها المئوي دعت العلماء من شتى بقاع الأرض لحضور احتفالها ولكنها أغفلت دعوة مواطنها «هيكل» استخفافاً به كعالم[١].

وقد اعترف داروين ذاته في نهاية حياته، أن الكلمة الأخيرة عنده هي أن المسألة خارجة عن نطاق العقل[٢].

هـ ـ اقتصاديات آدم سميث:

ظهرت مجموعة دراسات اقتصادية عديدة في عصر النهضة والعصور الحديثة، ويعتبر فاتحتها مؤلفات الكاتب الفرنسي جان بودان التي نشرت عام ١٥٦٩ في رسالة عن النقود، فَسّر فيها ارتفاع الأثمان بوفرة الذهب والفضة، وندرة السلع بسبب كثرة التصدير وترف الملوك والأمراء، وأوصى بضرورة جعل التجارة حرة ثم قام بدراسة مصادر الإيرادات العامة في مؤلفه عن علم السياسة «ستة كتب عن الجمهورية» الذي نشر عام ١٥٧٦.

---

(١) أسس الفلفة. توفيق الطويل ص ١٢٠.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص ٣٥٥.

وقد توالت المؤلفات الاقتصادية تناقش الربح والفائدة والربا والضرائب والأجور إلى أن جاء «الوثر الاقتصاد» آدم سميث (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠) الذي لمَّ شعث الأفكار القديمة من مواقعها المختلفة، ونسقها وقدمها علماً مكتمل الأصول والمبادىء.

ويعتبر كتابه «ثروة الأمم» شهادة ميلاد لعلم الاقتصاد السياسي، والكتاب مقسم إلى خمسة مجلدات[1]:

«يعالج الأول مسائل الإنتاج والتوزيع والمبادلة، ويعالج الثاني موضوع رأس المال، وفي الثالث والرابع نجد دراسة للسياسات الاقتصادية المختلفة التي اتبعتها الأمم في مختلف العصور، ويختص الخامس بموضوع المالية العامة».

ونادى سميث بأن مصدر الثروة هو العمل، وأن حرية الأعمال واجبة، وأن قانون المنفعة كفيل بتنظيم الشؤون الاجتماعية ورفع شعار: كل إنسان طالما لم يخالف قانون العدالة ـ فهو حر كل الحرية في اتباع الطريق الذي تدله عليه منفعته.

هذا وقد كان كارل ماركس في نظريته الاقتصادية عالة على دراسات السابقين في علم الاقتصاد السياسي، وخاصة آدم سميث، ولقد جاءت «مخطوطات عام ١٨٤٤ الاقتصادية والفلسفية لكارل ماركس» ثمرة غير شهية لتلك الجهود، واقتبس عبارات مطولة وأفكاراً غزيرة وهو القائل[2]:

«لقد انطلقنا من مقامات الاقتصاد السياسي وتقبلنا لغته وقوانينه».

وقد اعتبر «إنجلز» شريك ماركس ذلك التراث الاقتصادي «نصف تقدم» ونعى عليه تمسكه بالملكية الخاصة، والمغالطة ـ على حد زعمه ـ في

---

(١) فلسفة الفكر المالي د. عبد المنعم فوزي ص ٣٧.

(٢) مخطوطات كارل ماركس ـ ترجمة محمد مستجير مصطفى ص ٦٧.

إخفاء المتناقضات واللاأخلاقية في مذهب التجارة الحرة[1].

و ـ الثورة الصناعية:

أسفرت الكشوف الجغرافية في القرن الخامس عشر الميلادي عن اتساع آفاق الثروة والتجارة وظهور الطبقة الوسطى بثراء عريض، وأعقب ذلك عصر البخار وما تبعه من تطور تكنولوجي أدى إلى ميكنة الصناعة، وساعد على قيام التجمعات الصناعية الضخمة لمواجهة التكاليف الباهظة.

كان من نتيجة الموقف الجديد أن ظهرت طبقة العمال، التي خشيت في بادىء الأمر من خطر العمالة الزائدة لاعتقادها أن عمل الآلات سيؤدي إلى بطالة عامة، كما بدأت قضايا جديدة تثار حول ساعات العمل والأجور، وفي الوقت نفسه تكدست الثروات وارتفعت حرارة المنافسة، وأصبح المجتمع الصناعي في تفرقة اقتصادية، وازدادت الهوة بين الرأسماليين والعمال فتألفت الاتحادات العمالية للمطالبة بالحقوق، ونادى كثير من المفكرين بإعادة تنظيم عملية الإنتاج.

ووثب كارل ماركس إلى موجة العمال وأزكى روح الحقد، واعتبرهم حلقة في صراع تاريخي سيصل يوماً إلى إلغاء الملكية الخاصة وبناء المجتمع الشيوعي.

وهكذا فإن كارل ماركس قد استوعب تراثاً تاريخياً، وعاش أحداث عصره وقضاياه، ثم انتقى ثغرات المذاهب وزلات الفلاسفة وأحقاد الطبقات وصاغ منها نظرية شاذة، قامت على اصطلاحات مبهمة ومفاهيم عقيمة وحسبت قيم الحياة وقممها في محاولة يائسة لتحقيق أساطير وأضغاث أحلام.

فما هي تلك النظرية؟؟.

وما هي هذه الأساطير؟!.

---

(١) تخطيط لنقد الاقتصاد السياسي ـ ملحق بالمصدر السابق ص ١٦١.

المجتمع الشيوعى

إن المجتمع الشيوعى ـ كما تصوره ماركس وطبقه قرناؤه ـ فلسفة تجادل في الطبيعة وما وراءها، وسياسة تشرف على الحكم ونظمه، واقتصاد يسيطر على المجتمع وموارده، وانقلاب يدمر كل شيء ويروى من دماء البشر..

وفي دراستنا لذلك المجتمع نحاول أن نجلى[1]:

١ ـ دعائمه الفكرية التي يبنى عليها.

٢ ـ نظريته في علم الاجتماع التي يصدر عنها.

٣ ـ أسطورته الاجتماعية التي يتغنى بها.

٤ ـ واقعه التطبيقي الذي تمخض عنه.

ثم نتبع ذلك بدراسة علمية نقدية هادفة، تصون للحق قدسيته وللتاريخ حرمته وللإنسان كرامته وعزته.

١ ـ الدعائم الفكرية:

تعتقد الماركسية أن المادة أزلية أبدية، وهي سبب كل موجود، وليس ثمة مكان لقوة أخرى فوق الطبيعة، والعالم بقضه وقضيضه مادي، يمثل مختلف أشكال المادة المتحركة دائماً وأبداً في تحولات مستمرة من الأدنى إلى الأعلى..

وتذهب الماركسية إلى أن وعي الإنسان الذي يشكل أفكاره وعواطفه وإرادته.. إلخ نتاج متطور للمادة مرتبط بقدرتها على الاستجابة للمؤثرات الخارجية....

والجدل الماركسي الذي يدرس القوانين العامة للحركة، والتطور في الطبيعة والمجتمع والفكر ـ يقوم على ثلاثة قوانين أساسية هي:

---

(١) المرجع الرئيسي لهذا البحث هو: أصول الفلسفة الماركسية تألف: ف ـ ج أفانا سيف ترجمة حمدى عبد الجواد.

أ ـ وحدة وصراع الأضداد:

يقرر هذا القانون أن لكل شيء أو ظاهرة جوانب متضادة، فالذرة ذات شحنة موجبة وأخرى سالبة، والكائن الحي يقوم بعمليات التمثيل والإخراج، ويمتلك خصائص الوراثة والتكيف، ويقوم الذهن الإنساني بعمليات الإثارة والكبت ويستخدم طرق التحليل والتركيب، وتوجد في المجتمعات الطبقية العبيد والملاّك.. وهكذا فإن التناقض داخل الأشياء والظواهر ذو طبيعة عامة شاملة ولا يوجد شيء ينأى عن التقسيم إلى أضداد، غير أن هذه الجوانب المتضادة لا يمكن أن تتعايش سلمياً، فالصراع مطلق وهو الذي يشكل المصدر الرئيسي لتطور المادة. ومع هذا فلا يمكن تصور الضد دون الآخر ولا يمكن الفصل بين الأضداد بل وحدة الأضداد هي شرط الصراع.

ب ـ تحول التغير الكمي إلى تغير كيفي:

الكم يعبر عنه عادة بالعدد، وهو يعكس درجة التطور وكثافة الخصائص الفعلية للشيء، أما الكيف فهو كل ما يميز الشيء عن غيره، وتغير الكم في حدود معينة لا يؤدي إلى تحول ملحوظ للشيء، لكن التغير في الكيف يؤدي إلى تغير الشيء في جوهره.

ومفهوم هذا القانون أن الفوارق الكمية وتغيراتها بعد نقطة معينة من التطور تتحول إلى تغيرات كيفية. فالحركة التي هي صنو المادة تحدث تغيرات جوهرية تأخذ شكل القفزة التي قد تكون سريعة وفجائية، وقد تأتي على التدريج وببطء.

فالماء مثلاً تحت تأثير درجة حرارة معينة يتحول إلى بخار، ولكل خصائص مميزة، ويطرّد هذا القانون في التطور الاجتماعي، فالانتقال من الرأسمالية إلى الإشتراكية له مستلزمات كمية محدودة من نمو القوى الإنتاجية في ظل الرأسمالية، وتوسيع الطابع الاجتماعي للإنتاج وزيادة عدد العمال الثوريين.. إلخ ثم تحصل حينئذ القفزة إلى الإشتراكية وهي

كيف جديد تختلف كل الاختلافات عن الرأسمالية..

جـ ـ نفى النفى:

النفي هو الشكل الجديد أو الكيف الذي وصل إليه التطور المادي للشيء أو المجتمع، غير أن هذا الجديد لا ينفي القديم كلية، بل هو يحتفظ بأفضل ما فيه ويرتفع به إلى مستوى أعلى.. وهكذا فحين تنفي الكائنات الأرقى أدناها التي تنشأ على أساسها، إنها تحتفظ بالتركيب الخلوي اللازم للكائنات الدنيا، كما أن نظاماً اجتماعياً جديداً ينفي النظام القديم يحتفظ بقواه الإنتاجية وانجازات العلم والتكنولوجيا.

وإنطلاقاً من هذه القوانين فإن المادة هي المصدر الوحيد للمعرفة الإنسانية، والتفكير المجرد مستحيل بدون المعرفة الحسية، والوجود المادي هو الذي يصنع الوجدان البشري، والحقيقة دائماً نسبية ومعيار الصدق فيها هو التجربة العملية..

والإطار العام الذي تحاول الماركسية أن تتخلص منه هو الدين؛ لأنه ـ في زعمها ـ أفيون الشعوب يحرمها من طيبات الحياة وهو نوع من اغتراب الإنسان عن ذاته، فالشيوعية تبدأ منذ البداية مع الإلحاد، لكن الإلحاد في البداية أبعد من أن يكون شيوعية[1].

وقد اعتبر ماركس السؤال عن الذي خلق الإنسان الأول أو الطبيعة ككل ـ تجريداً يتنافى مع موضوعية الطبيعة والإنسان فلا يجاب عليه وإليك نص عبارته[2]:

ومن السهل الآن بالتأكيد أن نقول للفرد المفرد ما قاله أرسطو من قبل: لقد ولدت لأبيك وأمك، ومن ثم ففيك أنتج تزاوج كائنين إنسانيين ـ وهو فعل نوعي لكائنات إنسانية ـ الكائن الإنساني، ومن هنا

---

(١) مخطوطات كارل ماركس ترجمة محمد مستجير مصطفى ص ٩٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥.

فأنت ترى أن الإنسان يدين بوجوده ـ حتى جسدياً ـ للإنسان ومن هنا يجب ألاّ تبصر فحسب جانباً واحداً وهو التسلسل اللانهائي الذي يدفعك إلى أن تتساءل: من الذي أنجب والدي؟ ومن الذي أنجب جدي؟... إلخ بل يجب كذلك أن تبصر الحركة الدائرية التي تدرك حسيّاً في التسلسل والتي يكرر الإنسان ذاته عن طريقها في التكاثر، وبذلك يظل دائم الذات، غير أنك ستجيب: سأسلم لك بهذه الحركة الدائرة فلتسلم لي بالتسلسل الذي يدفعني أكثر إلى أن أسأل: من الذي أنجب الإنسان الأول والطبيعة ككل؟.

ولا أستطيع إلاّ أن أجيبك: إن سؤالك نفسه نتاج تجريد، اسأل نفسك كيف وصلت إلى هذا السؤال؟.

اسأل نفسك عما إذا لم يكن سؤالك مطروحاً من زاوية لا أستطيع أن أجيب عليها لأنها زاوية معكوسة.

اسأل نفسك عما إذا كان مثل هذا التسلسل من حيث هو تسلسل موجوداً بالنسبة لذهن عاقل.. فأنت حين تسأل عن خلق الطبيعة، والإنسان فإنك تجرد ـ بفعلك هذا ـ من الطبيعة والإنسان، إنك تفرض أنهما غير موجودين ورغم هذا فإنك تريد مني أن أثبتهما لك كموجودين، وأنا الآن أقول لك:

تخل عن تجريدك تكن متسقاً، وإذا كنت تفكر في الإنسان والطبيعة باعتبارهما غير موجودين ففكر في نفسك كغير موجود. لأنك أيضاً بالتأكيد طبيعة وإنسان.

لا تفكر ولا تسألني؛ لأنه حالما تفكر وتسأل فليس لتجريدك من وجود الطبيعة والإنسان معنىً.

أم هل أنت من الأنانية بحيث تفترض كل شيء كلا شيء، ورغم هذا تريد أن تكون أنت نفسك موجوداً؟!!.

وبهذا الأسلوب الملتوي وذلك التفكير المبهم ينتهي ماركس إلى استحالة السؤال والجواب.

٢ ـ نظريته في علم الاجتماع:

القضية الجوهرية التي تقوم عليها دراسة علم الاجتماع عند ماركس هي أن الإنتاج المادي هو الذي يحدّد كل جوانب الحياة الاجتماعية.. وقسّم التاريخ إلى خمسة مجتمعات تعكس الدور الذي لعبه العامل الاقتصادي وهي:

أ ـ المجتمع البدائي:

ويبدأ تاريخه بظهور الإنسان الذي تفرقه عن الحيوان قدرته على صنع واستخدام أدوات العمل.. وعاش الناس في جماعات وعشائر ترتكز على روابط الدم في مأوى مشترك، وتقاسموا المنتجات ولم يكن الإنتاج يومئذ إلاّ بقدر ما يحفظ بقاءهم، ولم يكن هناك شيء يمكن امتلاكه ومن ثم فإن الملكية الخاصة والطبقات والاستغلال لم يكن لها وجود.

ب ـ المجتمع اليهودي:

تطورت قوى الإنتاج، وحفر الناس الترع، ونشأت الحرف... ومع النمو المطرد في الإنتاج والعمل بدأت العشائر تتجزأ إلى أسر، ونشأت الملكية الخاصة، ومع زيادة الإنتاج عن الاستهلاك أصبح في الإمكان الاحتفاظ بالفائض، وبالتالي ظهرت بوادر الاستغلال عن طريق التجارة والاحتكار، ووجدت علاقات سيطرة وخضوع، فكانت دولة المُلاّك والعبيد.

جـ ـ المجتمع الإقطاعي:

بمرور الزمن أصبح التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج في المجتمع العبودي ـ حاداً للغاية، فتوالت الاضطرابات بين العبيد وأسيادهم وفي الوقت نفسه، استمر التقدم المطرد فظهرت طواحين الهواء والماء وصناعة الورق والبارود، وتقدمت الحرف، وحققت الزراعة تطوراً كبيراً

بفضل الفصائل الجديدة من الحبوب والفاكهة، وانتشار الأسمدة واتساع تربية الحيوان، وارتبط العبيد بالأرض إلّا أنهم حقّقوا لأنفسهم بعض التقدم.

ولا يختلف الهيكل العام للمجتمع الإقطاعي عن مثيله في المجتمع العبودي، والفارق الوحيد هو قيام جهاز الدولة والقوات المسلحة ورجال الدين بالدفاع عن مصالح الإقطاعيين والحفاظ على الملكية الخاصة.

د ـ المجتمع الرأسمالي:

حلت المصانع الضخمة محل الورش الحرفية، وتحرر العمال من الأرض ولكنهم لم يتحرّروا من سيطرة الرأسمالي؛ لأنهم لا يملكون وسائل الإنتاج، فاضطروا إلى بيع قوة عملهم مقابل أجر زهيد، فتمت الرأسمالية وتضخمت وتحولت إلى الاستعمار والاحتكارات العالمية. ومن هنا تعمقت التناقضات وظهرت (أيديولوجية) الطبقة العاملة جنباً إلى جنب مع أفكار البرجوازية (الطبقات الوسطى المستغلة).

و ـ المجتمع الشيوعي:

على أنقاض الرأسمالية يدعي ماركس قيام الإشتراكية طريقاً إلى الشيوعية.

ومن خلال هذا التطور التاريخي الذي يحركه الأثر الاقتصادي يبرز دور الشعب العامل في صنع التاريخ عن طريق الصراع الطبقي بين العبيد وملاكهم في المجتمع العبودي؛ والفلاحين والإقطاعيين في ظل الإقطاع، والبروليتاريا والبرجوازية في ظل الرأسمالية.

وللماركسية رأي في نشأة الدولة وطبيعتها فهي نتاج المجتمع الطبقي لحماية الملكية الخاصة، وما القوات المسلحة والهيئات الدستورية إلّا وسائل في أيدي الطبقة الحاكمة لكبت الشعب العامل وإخضاعه لعصبة المستغلين، وستختفي كل هذه الأشكال مع زوال الطبقات وقيام المجتمع الشيوعي.

٣ ـ الأسطورة:

يمر المجتمع الشيوعي بمرحلتين:

الأول: الإشتراكية.

الثانية: الشيوعية.

ويعتقد الماركسيون أن المجتمع الرأسمالي ضرورة لا بدّ منها للانتقال إلى الإشتراكية، وذلك أنه في ظل الرأسمالية تعاني البروليتاريا (طبقة العمال) من أزمات الاقتصاد والبطالة والسلب، لأن طبيعة الرأسمالية أن تسرق من العامل ثمار عمله تبعاً لقانون «فائض القيمة» فيزداد الصراع الطبقي ويتخذ أشكالاً رئيسية هي:

أ ـ **الصراع الاقتصادي**: وهو المطالبة برفع الأجور وتقليل ساعات العمل وما إلى ذلك، والقيام بالإضراب حتى تتحقق هذه المطالب.. وتعتبر الماركسية أن الصراع الاقتصادي هو المدرسة الأولى التي يتعلم فيها العمال التنظيم والتضامن ونمو الوعي الطبقي.

ب ـ **الصراع العقائدي**: وهو تبني الماركسية ونشرها بين العمال لتصبح الجماهير واعية بمصالحها الطبقية.

جـ ـ **الصراع السياسي**: وهو النضال من أجل سلطة الدولة ودكتاتورية البروليتاريا ويكون ذلك بالإضرابات السياسية والمظاهرات والنضال المسلح.. ويقود هذا الصراع حزب قادر على توفير القيادات.

وقد أصدر ممثلو الأحزاب الشيوعية والعمالية عام ١٩٥٧ بياناً حدّدوا فيه القوانين العامة لإقامة الإشتراكية وهي[١]:

أ ـ قيادة الطبقة العاملة ـ وقلبها وهو الحزب الماركسي اللينيني ـ لكل الشعب العامل في القيام بالثورة الإشتراكية بشكل أو بآخر، وفي إقامة ديكتاتورية البروليتاريا بشكل أو بآخر.

---

(١) أصول الفلسفة الماركسية ص ١٢٧.

ب ـ إلغاء الملكية الرأسمالية، وتطبيق الملكية العامة لوسائل الإنتاج الأساسية.

جـ ـ التحول التدريجي في الزراعة إلى الإشتراكية.

د ـ التنمية الاقتصادية على أساس الخطة بهدف بناء الإشتراكية والشيوعية ورفع مستوى معيشة الشعب العامل.

هـ ـ تنفيذ الثورة الإشتراكية في ميدان الأيديولوجية والثقافة وخلق عدد من الأنتلجنسيا (الصفوة والطليعة) ممن كرسوا أنفسهم لقضية الإشتراكية.

و ـ إلغاء القهر القومي، وإقرار المساواة والصداقة بين الشعوب، والدفاع عن المكتسبات الإشتراكية أمام تهجمات الأعداء في الداخل والخارج.

ز ـ تضامن الطبقة العاملة في البلد المعين مع الطبقة العاملة في البلدان الأخرى ـ الأممية البروليتارية ـ!!.

من هذا يتبين أن الملامح العامة للمرحلة الإشتراكية هي:

١ ـ قيام ديكتاتورية الطبقة العاملة.

وكان «لينين» يطلق على ديكتاتورية البروليتاريا المحك لاختبار فهم المرء واقتناعه بالماركسية وقال[1]:

لكي تكون ماركسياً لا يكفي الإقرار بوجود الصراع الطبقي، ويمكنك فقط أن تكون ماركسياً إذا امتد اعترافك بالصراع الطبقي إلى الاعتراف بدكتاتورية البروليتاريا.

٢ ـ الإرهاب الأحمر والعنف الثوري والقمع المستمر أحد الوظائف الرئيسية

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٥.

لدولة البروليتاريا وقد قال ماركس[1]:

إن سلاح النقد لا يمكن بالتأكيد أن يحل محل نقد السلاح.

وفي الاتحاد السوفيتي بلغ عدد من نفذ فيهم حكم الإعدام ما بين (١٩١٧ ـ ١٩٢١) مليونا وسبعمائة وستين ألفاً من المواطنين الروس كما قتل في الاضطرابات حوالي خمسة عشر مليوناً من الأفراد[2].

٣ ـ القضاء نهائياً على الملكية الخاصة بامتلاك الدولة للصناعة، وتطبيق الملكيات التعاونية في الزراعة مع رفع شعار: من كل قدر طاقته ولكل حسب عمله.

ومن خلال العمل المستمر لتعميق الفكر المادي، واجتثاث الفروق الطبقية، والحفاظ على مستوى عال من العنف، وتوفير الثروة المادية ـ ينمو المجتمع بالضرورة ـ في زعمهم ـ ويصل إلى المرحلة العليا وهي الشيوعية.

وهي مجتمع غير طبقي ينفذ المبدأ القائل: من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته، وبذا توفر الشيوعية لكل أفراد المجتمع الظروف الاقتصادية التي تلبي كل ما يتطلع إليه الإنسان وسيختفي العمال والفلاحون كطبقات، كما سيقضى على الفروق بين المدينة والقرية، ولن يكون هناك مثقفون كمجموعة مستقلة فكل مواطن سيشترك في العمل الذهني والعضلي، ويتمتع الجميع بظروف متساوية، ويتحلّون جميعاً بصفات حب العمل والنظام والإخلاص لمصالح المجتمع... وحينئذ ستفقد الأجهزة الإدارية للدولة بالتدريج طابعها السياسي والطبقي، وتصبح أدوات للإدارة الذاتية العامة، وبامتزاجها النهائي في المجتمع ومن خلالها يدير جميع أعضاء المجتمع الشؤون الاقتصادية والثقافية، وبهذه الصورة ستندثر الدولة متى صاحبها انتصار الإشتراكية على نطاق العالم أجمع

---

(١) الأسس الأخلاقية للماركسية ص ٨١.

(٢) أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي. د. زيدان عبد الباقي ص ٧٢.

إذ إن زوال الدولة مشروط بأمرين:

أ ـ بناء مجتمع شيوعي متطور.

ب ـ انتصار الشيوعية العالمية، فإذا انتصرت الشيوعية في بلد أو مجموعة بلاد مع استمرار وجود دول رأسمالية مسلحة في العالم، فإن المجتمع الشيوعي سيجد نفسه مضطراً إلى الإبقاء على وظيفة الدولة الدفاعية، ولن تندثر هذه الوظيفة إلاّ مع الاختفاء الكامل لخطر الهجوم من قبل القوى المعادية.

٤ ـ واقع التطبيق:

في أكتوبر عام ١٩١٧ قامت الثورة الشيوعية في روسيا بقيادة لينين زعيم البلاشفة (الأغلبية) في الحزب الاشتراكي الروسي، وبدأت المحاولات الأولى لتطبيق نظرية ماركس، فألغيت الملكيات الخاصة ونقلت ملكيات الأرض والغابات والمصانع والبنوك وسائر المنشآت إلى الدولة وصدر الدستور السوفييتي الأول في يوليو ١٩١٧ ينص في مادته الأولى على أن روسيا جمهورية سوفيتية من نواب العمال والجنود والفلاحين، وأن كل السلطات المركزية والمحلية تصدر عن مجالس السوفييت (المجالس النيابية).

وفي فترة حكم لينين (من ١٩١٧ إلى ١٩٢٤) عانى الشعب الروسي كثيراً من الصعاب السياسية والاقتصادية، وواجهت روسيا شبح المجاعة والفوضى، ووقفت دول أوروبا الغربية منها موقف المقاطعة التامة، فأدرك لينين الخطر الذي يهدد دولته فآثر الانحراف عن الشيوعية المتطرفة ونادى بسياسة اقتصادية جديدة كان أبرز ما فيها[1]:

«أن أعيد نظام الملكية الفردية بصورة مخفّفة وقيود معينة بالنسبة للأراضي الزراعية الصغيرة والمساكن، أما المشاريع والأعيان الضخمة مثل المصانع والمناجم والغابات والضياع الكبيرة فقد بقيت في ملكية الدولة،

(١) المذاهب الاجتماعية الحديثة. محمد عبد الله عنان ص ٨١.

وأجيز الميراث بقيود، وأجيزت التجارة الخاصة في حدود معينة إلى غير ذلك مما لا تقّره التعاليم الشيوعية الخاصة».

وفي ديسمبر ١٩٤٦ صدر الدستور السوفييتي الثالث الذي وضعه «ستالين» يقرر لأول مرة أصولاً لا تتنافى مع الشيوعية الماركسية، فمادته العاشر تقرر:

«يحمي هذا القانون حق الملكية الشخصية للمواطنين على الإيرادات والإدخارات الناتجة من عملهم، وعلى الأملاك المخصصة لسكناهم، وعلى الإدخارات المنزلية الإضافية والأدوات المنزلية والتي تخصص للاستعمال اليومي، وعلى الأدوات والأمتعة الشخصية وكذلك يحمي حق الوراثة للملكية الشخصية للموطنين».

والمادة الرابعة عشر تعترف للأفراد بحق مزاولة الشعائر الدينية وأعادت حكومة موسكو «المجمع المقدّس» عام ١٩٤٣، وعينت بطريركاً للنصارى ومفتياً للمسلمين..

وبعد أن كان الصراع الطبقي قانون الوجود والطبيعة والمجتمع، أصبح التعايش السلمي عنوان السياسة السوفييتية واستنتج لينين[1]:

أنه خلال فترة من التاريخ عندما تتواجد الدول الرأسمالية جنباً إلى جنب مع الدول الإشتراكية يصبح التعايش السلمي بينهما أمراً محتوماً!!.

ومن الأمور التي أسفر عنها التطبيق، وكانت ذات مغزى عميق في تأكيد أسطورة الماركسية أنه «كلما دخلت أمة لعنت أختها» ولم تتحد خطوات الماركسية في المعسكر الشيوعي وأصبحت التهمة المتبادلة بين أقطاب هذا المعسكر هي التحريف والردّة.

ولنضرب بعض الأمثلة:

عندما بدأ لينين سياسته الاقتصادية الجديدة عارضه معظم أصدقائه

(١) أصول الفلسفة الماركسية. أفانا سيف ص ٣١٢.

القدماء وعلى رأسهم «تروتسكي» منشىء الجيش الأحمر، وقد نشبت إثر وفاته معركة حامية بين المعتدلين والمتطرفين داخل الحكومة والحزب، انتهت بانتصار ستالين الذي تعقب خصومه بشتى ألوان العنف، واستطاع تروتسكي الفرار من بطشه وأخذ يقود المعارضة المتطرفة من الخارج حتى لقي مصرعه في المكسيك عام ١٩٤١.

وفي مؤتمر الحزب الشيوعي الذي عقد سنة ١٩٥٦ بعد وفاة ستالين بثلاث سنين وقف «خروشوف» يحمل عليه بشدة ووصفه بالقسوة والاستئثار بالسلطة وإضعاف الدولة.

وقد لحق بخروشوف نفس التهمة ولكن في حياته. فجرد من سائر مناصبه عام ١٩٦٥ وأسدل عليه الستار حتى أدركته منيته في سبتمبر سنة ١٩٧١م.

وعلى الصعيد الدولي نجد «تيتو» في يوغسلافيا يصطدم مع ستالين ويتبنى فكرة الإدارة الذاتية والعمل على تكييف الدولة داخل التجربة الإشتراكية، ويتزعم حركة الحياد الإيجابي والتعايش السلمي.

وعلى حدود الصين تقف كتائب الشيوعية الماوية في مواجهة جيوش رفاق الكرملين.. بل إن النظرية الماوية قد انهارت هي الأخرى واتهمت بأقسى النعوت بعد رحيل «ماو» ومحاكمات عصابة الأربعة.

وفي أوروبا الغربية نادت الأحزاب الشيوعية بنظرية إصلاح الرأسمالية من الداخل والمواءمة مع ظروف كل دولة، وتحقيق الأهداف بالطرق الديمقراطية دون صراع أو ديكتاتورية البروليتاريا... وإلى هنا نستطيع أن نقول:

إن الماركسية في مجال التطبيق فقدمت مقوماتها الأساسية كما تصورها واضعها وخاصة في:

١ ـ الاعتراف بحق مزاولة الشعائر الدينية.

٢ ـ حماية الملكية الخاصة.
٣ ـ الاستغناء عن ديكتاتورية البروليتاريا.
٤ ـ الاحتماء بسياسة التعايش السلمي والمناداة بالوفاق الدولي...

وسواء أكانت هذه الأمور مرحلية خداعاً للجماهير، وهدنة مؤقتة أم كانت اعترافاً بخطأ النظرية ونهاية لأساطيرها، فإن الحقيقة أن التجربة الشيوعية قد فشلت، ولم تحقّق الدول التي ترفع شعارها نجاحاً في سياستها إلاّ بعد أن قلمت أظفارها وطمست معالمها.

وإلى هنا يسلمنا الحديث إلىٰ أن نتكلم عن كذب التنبؤات الماركسية:

فطبقاً لنظرية ماركس في علم الاجتماع وتطور المجتمعات، فإن مهد الثورة الشيوعية هو الدول المتقدمة صناعياً مثل انجلترا والمانيا حيث تتكاثف البروليتاريا في مواجهة الاحتكاريين والامبرياليين.

وقد كذبت هذه النبوءة فقامت الثورة الشيوعية في روسيا الدولة الإقطاعية.

وتخلفت أيضاً هذه الكهانة في التجربة الصينية فقامت الثورة على أيدي الفلاحين البسطاء.، وليس العمال الواقعين في قبضة الرأسمالية، فجاء «ماوتسي تونج» فلاحاً ابن فلاح وقاد جماهير الفلاحين وزحف بهم إلى قلاع العمال لتحريرها..

وتزعم الأوهام الماركسية أنه لا سبيل لإنقاذ العمال من سوط الرأسمالية إلاّ بالصراع الطبقي المرير، والثورة العمالية للإطاحة بالبرجوازية وانتصار الإشتراكية وإذا بالواقع الموضوعي يؤكد أن العمال الآن في ظل الدول الرأسمالية المتقدمة صناعياً أفضل حالاً وأهنأ عيشاً من زملائهم تحت ديكتاتورية البروليتاريا، وذلك بفضل الوسائل الدستورية والنقابات العمالية والديمقراطية العملية.

كذلك كذبت كهانة ماركس في زعمه أن تقدم الصناعة الثقيلة وميكنتها سيؤدي إلى زيادة البطالة العمالية وإلى حدوث المجاعات العامة، وتأكيداً لهذه الكهانة فقد ختم البيان الشيوعي بالخدعة الكبرى التي تقول:

إن أفراد البروليتاريا لن يفقدوا سوى أغلالهم وأمامهم عالم يكسبونه. فيا عمال العالم اتحدوا!!.

وبنظرة واقعية إلى المعسكر الرأسمالي نجد أن العمال زادت أجورهم، وتضاعف عددهم ولهم صوت مسموع وتأثير واضح على قيادة المجتمع وسيادة الدولة.

وبعد:

ذلك هو جوهر الماركسية في نظريته وتطبيقه.

وتلك هي معالم الشيوعية في أحلامها وواقعها.

اقتصرت منه على عمده الرئيسية وخصائصه المميزة دون محاولة للنقد أو الحكم الذاتي بل هي الدراسة والمقارنة..

أما التقييم في إطار الفكر الراشد والحقائق العلمية فذاك موضوع البحث التالي.

الماركسية في الميزان

يكفي أن نحيل الحكم على الماركسية إلى واقعها التطبيقي لنرى تقهقرها عن دعائم نظريتها، ولكنها تبقى كمذهب فلسفي يقف عقبة مشؤومة في وجه قيم الحياة وفضائلها، وكحركة دولية تزكي نار الحقد وصراع الطبقات، وكنظرية اقتصادية تلوح للناس بصفقة خاسرة..

وذلك يحتاج منا إلى تقييم للمذهب ومواجهة للحركة والنظرية.

وجوهر المذهب في ماديته الإلحادية ولب الحركة والنظرية في أسطورتها الاجتماعية.

وعلى هذا فإن دراستنا النقدية ذات شقين:

أ ـ موقف الماركسية من الدين.

ب ـ موقف الماركسية من المجتمع.

تقييم موقف الماركسية من الدين

أ ـ استقراء ناقص:

إن الموقف المتطرف من الدين لدى ماركس وقرنائه يمكن أن يكون رد فعل لملل أخطأت المنهج الإلهي، ونحل أهدرت كرامة الإنسان.

فالنصرانية في العصور الوسطى قدمت تصوراً منحرفاً في الإله والكون والإنسان. فثالوث الألوهية وفكرة الوساطة وصكوك الغفران، والتقليد الأعمى لأفكار غامضة عن الفلك، وباطلة عن الكون تسربت من الفكر الخرافي اليوناني بالإضافة إلى محاكم التفتيش وفساد الكنيسة وانحلال رجالها وفحش آبائها. كل ذلك قدم صورة قاتمة عن الدين عاصرها ماركس وشاهد آثارها.. ولذا كتب ماركس في صحيفة المانية عام ١٨٤٨م يقول[1]:

«المبادىء الاجتماعية للمسيحية تبشر بالجبن واحتقار الذات والحطة والخنوع والمسكنة، بالاختصار إنها تبشر بكل صفات النذل، والبروليتاريا التي لا تريد أن تعامل على أنها نذل، تريد شجاعتها ووعيها بالذات وكبرياءها واستقلالها أكثر مما تريد خبزها».

ومما يؤكد ذلك أن بعض المؤرخين جعلوا أحد الأسباب الرئيسية لانهيار الحكم القيصري في روسيا هو وجود الراهب «راسبوتين» ذلك الشيطان المقدس الذي تسلل إلى القصر لمعالجة ولي العهد، فما لبث أن سيطر بنفوذه على القيصر وسياسة الدولة، وأنزل بها من مشكلات السياسة

---

(١) الأسس الأخلاقية للماركسية ـ كامنكا ترجمة مجاهد عبد المنعم ص ٤٨.

والاقتصاد أعتاها وأشدها تعقيداً.

وكان هذا الراهب الشيطان ينادي بمبدأ ديني يقول: إن اقتراف الخطيئة مقدمة ضرورية لالتماس المغفرة!! ومن هنا صاحبته النساء من جميع الطبقات، ولازمنه أينما توجه وجاهر بتقبيلهن والاشتراك في الحفلات الماجنة وأسرف في الدعارة..

ومن جهة أخرى فإن ماركس عرف اليهودية، ورآها تمسك بمفاتيح الاقتصاد في احتكار ظالم، واستغلال للإنسان غاشم وإهدار لكرامته مهين، وله رسالة حول «المسألة اليهودية» يربط فيها بين اليهودية والنصرانية باعتبارهما شريكين في الجريمة ذلك أن النصرانية نظرية متكاملة في الاغتراب الذاتي للإنسان عن نفسه وعن الطبيعة انتظاراً للكوت السماء، وهي بهذا العمل قد تركت المجال لليهودية لتكسب سيادة كلية تسيطر بها على الإنسان المغترب ليكون في خدمة الأثرياء.

وإذا كان هذا شأن اليهودية والنصرانية لدى ماركس، فإنه قد وقف أيضاً على أسرار أديان الهند التي تجعل الناس طبقات متباعدة أعلاها الكهنة وأدناها رقيق الأرض، وتغلف العقل الإنساني برموز وشطحات وتضحي بشرف الإنسان وعزته أمام الحيوان الأعجم!!.

وقد نشر ماركس في عام ١٨٥٣ مقالاً عن مجتمعات القرية في الهند جاء فيه[1]: «علينا ألاّ ننسى أن هذه المجتمعات الصغيرة قد تدنست بالفروق القبلية والعبودية وأنها أخضعت الإنسان للظروف الخارجية بدل رفع الإنسان ليكون سيد الظروف وأنها حولت الدولة الاجتماعية المتطورة ذاتياً إلى مصير طبيعي لا يتغير أبداً، ومن ثم تسببت في العبادة الوحشية للطبيعة عارضة انحطاطها في كون الإنسان ـ سيد الطبيعة ـ قد سقط راكعاً على قدميه وهو يعبد القرد والبقرة».

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩.

ولو أن الماركسيين عرفوا الإسلام لما أخطأوا في إصدار حكمهم الغاشم بأن الدين أفيون الشعوب، وأن المادة سيدة الكون، نتيجة استقراء ناقص ورعونة فكرية لم تستطع أن تفرق بين دين ودين، أو بين الدين في نقائه والدين في تحريفه، أو بين الدين ورجال الدين.

إن الجانب الإلهي في الإسلام تحدده كلمات قصار هي قمة الإعجاز وقوة التصوير في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أحدٌ، اللَّهُ الصمد، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَد ولم يكُنْ لهُ كُفُواً أَحَدْ ﴾.

وبهذا تتهاوى كافة العقائد الوثنية وأباطيل أهل الكتاب، وأوهام الفلاسفة.

والمسلم يستفتح صلاته سبع عشرة مرة على الأقل كل يوم بقوله سبحانه: ﴿ الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين.
إياك نعبد وإياك نستعين.
اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوبِ عليهم ولاَ الضَّالِين ﴾.

وهذه السورة ذات مقاصد ثلاثة:

١ ـ الألوهية:

وقد وجهت المسلم نحو الرحاب الواسعة والآفاق العريضة، فالكون والكائنات جميعاً مربوبة لله واهب الحياة ومانح العطايا، وأيقظت فيه روح العمل الجاد والبناء الهادف والسعي الرشيد لأن هناك يوماً للجزاء يحاسب فيه المرء على ما قدمت يداه.

٢ ـ العبادة:

إنَّ الألوهية المقدسة تستتبع العبادة الضارعة، فالإنسان أحوج ما يكون إلى استشعار القلب بعظمة المعبود المتعالي الودود الرحيم.. وقد شرع الإسلام العبادات تأكيداً لتلك الصلة الوثيقة بين العبد وربه، ولهذا

جاءت جملة ﴿ وإياك نستعين ﴾ عقب ﴿ إياك نعبد ﴾ دليلاً على عمق العزة التي يستمدها المسلم من عزة رب العالمين، وفي تقديم الضمير ﴿ إياك ﴾ على الفعلين لفت كريم للعقل البشري أن يتسامى عن الأصنام والأوثان، وأن يتجاوز وساطة الأحبار والكهان وأن يستمسك بحبل الله القوي المتين.

٣ ـ شريعة الله:

ما كان الله ليذر الناس من غير هداية فجاءت الرسل تترى لترشد الناس إلى أقوم السبل عمارة الدنيا وزاداً للآخرة.

وهذا هو المقصد الثالث الذي تؤكده الفاتحة حتى يلجأ المسلم بالدعاء إلى الله تعالى بأن يقيمه على الحق وأن يباعد بينه وبين سبل الطاغوت.

ب ـ اغتراب الإنسان:

إذا صح في بعض الملل والنحل أنها نظريات في اغتراب الإنسان عن نفسه وعن الطبيعة، وغيبوبته من مناط عزته وكرامته، واستسلامه لخرافات كبرى وآمال معسولة، فإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أيقظ الإنسانية وخصائصها في الإنسان، وسما به إلى الملأ الأعلى، وجعله محور الكون والطبيعة، وسيد الوجود وخليفة الله في أرضه.

وشخصية الإنسان في الإسلام تحددها ثلاثة خطوط رئيسية هي:

١ ـ الاصطفاء:

فهو طاهر الأصل، بريء من الذنب، مولود على الفطرة النقية، قال الرسول ﷺ: «كلُّ مولود يولَد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه..» رواه البخاري.

٢ ـ الخلافة:

فهو سيد الكون وما عداه مسخر له. واقرأ هذا البيان الإلهي:

﴿ اللَّهُ الذي خَلق السمواتِ والأرضَ وأنزلَ منَ السّماءِ ماء فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم، وسخّرَ لكم الفُلكَ لِتجري في البحرِ بأمرِهِ، وسخّرَ لكمْ الأنهارَ وسخّرَ لكُمْ الشّمسَ والقمرَ دائبين، وسخّرَ لكُمْ الليلَ والنّهارَ، وآتاكمْ من كلِّ ما سألْتمُوهُ، وإنْ تَعدّوا نعمةَ اللّهِ لا تحْصوها إنَّ الإنسانَ لظلومٌ كفّار ﴾[1].

٣ ـ التكليف:

الإنسان ـ في عرف القرآن ـ مخلوق مكلّف يتحمل أمانة قيادة الحياة بمنهج الله. وهذا هو أجمع تعريف لخصائص الإنسان ومميزاته.

وقد اشتهرت تعريفات للإنسان مثل.

الإنسان حيوان ناطق.

أو: حيوان مدني بالطبع.

أو: حيوان راق.

أو: روح علوي سقط إلى الأرض من السماء.

ويعلق الأستاذ العقاد على هذه التعريفات فيقول[2]:

أولها: محيط به من جانب مزاياه العقلية.

وثانيها: محيط به من جانب علاقاته الاجتماعية.

وثالثها: ينظر إلى ترتيب الإنسان بين أنواع الأحياء على حسب مذهب التطور.

ورابعها: ينظر إلى قصة الخطيئة التي وقع فيها آدم حين أكل من الشجرة.

وكل هذه التعريفات تحيط بمعنى الإنسان من بعض نواحيه، وآخرها

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. عباس محمود العقاد ص ٧٨.

لا يحيط بمعناه إلاّ عند من يؤمن بقصة الخطيئة ويؤمن معها بميراث الخطيئة في بني آدم وحواء.

وأما تعريف الإنسان بما وصف به في القرآن وأحاديث النبي عليه السلام فقد اجتمع جملة واحدة في تعريفين جامعين:

١ ـ الإنسان مخلوق مكلف.
٢ ـ الإنسان مخلوق على صورة الخالق.

هذا والإنسان في ظل التكليف الإلهي مطالب باليقظة العقلية والنضج الفكري، وقد أرسى القرآن قواعد البحث وأصول التفكير كما يلي:

١ ـ حرر العقل من رواسب التقليد وعادات البيئة فقال:
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُواْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَينَا عَلَيْهِ آبَاءَنا أَوَ لَوْ كانَ آباؤهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠).

٢ ـ نعى على أتباع الظن والهوى فقال:
﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلمٍ إن يتبعونَ إلاّ الظنَّ وإنَّ الظَنَّ لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ (النجم: ٢٨).

٣ ـ أرشد إلى العناية بحواسّ الإنسان واستخدامها فيما خلقت له فقال:
﴿ وَلاَ تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ إنَّ السمْع والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسؤولاً ﴾ (الإسراء: ٣٦).

٤ ـ أمر بالبحث في ملكوت السموات والأرض فقال:
﴿ إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلاَفِ اللَّيْـلِ والنَّهَـارِ والفلكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا ينفعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بعْدَ مَوْتِهَا وبَثَّ فِيها من كُلِّ دَابَّةٍ وتصريفِ

الرياحِ والسّحابِ المسخّر بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقلُون ﴾ (البقرة: ١٦٤).

٥ ـ لفت النظر إلى قوانين الاجتماع ونواميس الكون، وأكد استمرارها ولن تجد لسنة الله تبديلاً فقال:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمكذِّبِينَ هَذا بيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَة للمُتَقِين ﴾ (آل عمران: ١٣٧).

والقرآن المجيد أحصى الجدل الذي دار على عهد النبوة إحصاءً دقيقاً وفصل الشبهات تفصيلاً تاماً في الألوهية والوحدانية، والبعث والنشور، والنبوة والرسالة.. وأردفها بالدليل والبرهان، وما على القارىء إلاّ أن يفتح المصحف الشريف حيث شاء ليجد صدق ما نقول.

ولهذا اتفق جمهور العلماء على أن المدخل للإيمان إنما هو النظر العقلي والبحث الفكري، وأجمع العلماء على نقصان إيمان المقلد، بل غالى بعضهم وزعم أنه لا نجاة معه حيث إن الإيمان لا بد وأن ينشأ عن علم كما قال تعالى: ﴿ فاعلم أنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[1].

جـ ـ منهج البحث في الألوهية:

إن الكون بأجزائه وجزيئاته ينطق بلسان لا ترد حجته بأن له واهباً ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلقه ثُمَّ هُدى ﴾، والفطرة الإنسانية في حال نقائها تلجأ إلى الذي فطرها، والإنسان إذا أظلم عليه السبيل أو جاءته ريح عاصف أو هاجه موج سائر رجع إلى صوت الفطرة وتضرع إلى الله وحده رجاء كشف الضر، فتتداركه يد العناية الإلهية وتسبغ عليه من النعم

(١) سورة محمد، آية: ١٩.

ظاهرها وباطنها.. لكنه هو الإنسان الظلوم الجهول ما أن يستشعر بسطة جسم أو فضل نعمة حتى يقول: ﴿ إنَّما أوتيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَاكِّرِينَ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرَبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ[1] .

إنَّ الإلحاد لا يقوم على حجة وإنما ينشأ عن هوى وشهوة جامحة، وقد يكون عن ارتجال وانسياق أو نتيجة ظروف تحيط بالشخص من فقر اجتماعي أو مرض نفسي أو أزمة عائلية. وقديماً تبرم الشعراء بالقدر وقال أحدهم:

كم عالمٍ عالمٍ ضاقت مذاهِبُه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهامَ حائرة وصيّر العالِمَ النحريرَ زنديقا

ولو تعقل هذا القائل نظام الحياة وحكمة الوجود لانقلب صدّيقاً لا زنديقاً.

وحين سُئِل رائد الفضاء السوفييتي «جاجارين» عما شاهده في رحلته الأولى حول الأرض قال:

لقد شاهدت الأجرام السماوية والكواكب تدور في نظام دقيق كأن قوة عليا تمسك بها وتهيمن عليها.. !!

ذلك هو الشعور الفطري الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿ إنَّ اللَّهَ يمسكُ السمَوَاتِ والأَرْضَ أنْ تَزُولا ولَئِنْ زالَتا إنْ أمسكَهُمَا من أحدٍ مِنْ بَعده إنَّه كَانَ حلِيماً غَفُوراً ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٣ ـ ٦٤.

(٢) سورة فاطر، آية: ٤١.

وما كاد جاجارين يصرح بذلك حتى استدعاه «خروشوف» رئيس الوزراء السوفييتي وذكره بشيوعيته فكيف ينطق بما يفهم منه الإيمان بالله؟.

فلم يلبث أن أعلن بعد ذلك أنه بحث عن الله في كل مكان في السماء فلم يجده!!.

وقد زار القاهرة في شهر يناير سنة ١٩٧٥ رائد الفضاء الأمريكي «جيمس أروين» قائد رحلة (أبوللو ١٥) التي استغرقت ثلاثة عشر يوماً من ٢٦ يوليو إلى ٧ ـ أغسطس سنة ١٩٧١ وقضى منها حوالي عشرين ساعة على سطح القمر في سيارة خاصة.

وفي حوار صحفي معه نشر في صحيفة أخبار اليوم (١٩٧٥/١/١١) قال:

لقد أدى نزولي على سطح القمر إلى زيادة إيماني بالله، وزادت العقيدة الدينية عمقاً في نفسي.

فقيل له: ولكن جاجارين قال إنه بحث عن الله في السماء فلم يجده؟ فقال أروين: أنا لا أعرف إذا كان جاجارين قد صرح بذلك أم لا، ولكن أحب أن أوضح أن الإنسان لا يمكن أن يرى الله بعينه كما يرى سائر الكائنات. وأنا أيضاً لم أر الله في رحلتي من الأرض إلى القمر ولكني شعرت به وازداد إيماني بوجوده وبقدرته وبقوته.. فهذه الكواكب والنجوم التي تسبح في الفضاء اللانهائي بنظام رائع وبديع ومحكم لا يمكن أن تكون قد وجدت تلقائياً أو بمحض الصدفة، ولكن لا بدّ من وجود قوة خارقة لا يبلغ مداها عقل الإنسان هي التي تتولى تنظيم حركة الكون وحركة الكواكب والنجوم في الفضاء وهذه هي القوة الإلهية..!!.

* * *

إن ماركس حين طمس معالم الدين، وأنكر حقيقته في سبيل لقمة العيش ومتاع الدنيا قد جلب على أتباعه مشاكل لا حصر لها، وضياعاً لا

نهاية له بين قوى الطبيعة العمياء الصماء البكماء.

فإن قصة الإنسانية الكبرى لا يمكن أن تبدأ بالنطفة وتنتهي بالقبر.. وما ادعاه ماركس بأن الإنسان حلقة عليا في سلسلة الموجودات بناء على نظرية داروين ليس إلاّ وهم جاهل وأسطورة كاهن، فإن القول بالتطور مجرد فرض يعوزه التحقيق العلمي..

وهـاك ما التمسوه من أدلة..

١ ـ الدليل التشريحي:

قالوا إن أجزاء الهيكل العظمي للإنسان تتشابه بمثيلاتها في الحيوانات الأخرى، فذراع الإنسان والرجل الأمامية من ذوات الأربع تتشابه عظامها في التركيب، وإن اختلفت في الوظيفة، وكذلك الحال بالنسبة للأجهزة الهضمية والتناسلية.. إلخ.

وهذا الدليل لا ينهض برهاناً على دعواهم فمتى كان التشابه دليلاً على أن أحدهما أصل للآخر وذلك الآخر منقلب عنه؟.

لقد كان الأولى أن يُقال إن تشابه الخلق دليل على وحدة الخالق، وصدق الله إذ يقول: ﴿ومَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَطَائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحيهِ إلاّ أممٌ أمثالكُمْ﴾[1].

٢ ـ دليل التراكيب الأثرية:

ويعنون به أن بعض الأعضاء زائدة في الإنسان ولا فائدة منها مثل الشعر الموجود في جسم الإنسان البالغ، وكذا الزائدة الدودية، والقدرة على تحريك الأذن عند بعض الناس. فظهور هذه الفضلات ما هي إلاّ آثار لصفات فقدهـا الإنسان منذ أمد بعيد نتيجة التكيف مع الوضع الجديد.

وبدهي أن العلم لا يعرف الكلمـة الأخيرة، والحكم عـلى هذه

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

الأعضاء بالزيادة حمق وبلاهة فهل أحطنا علماً بكل شيء وعرفنا كل صغيرة وكبيرة في الإنسان أعضاؤه ومشاعره؟

كلا وفوق كل ذي علم عليم..

٣ ـ دليل الصور الجنينية:

وقد بني على أساس أن تحولات الجنين في الفرد الواحد صورة مصغرة لتحولات النوع، وقالوا أيضاً إن الأطوار الأولى للجنين تتشابه في كل من الإنسان والحيوان، وحاول أرنست هيكل (١٨٣٤ ـ ١٩١٩) عرض صور لجنين الإنسان كي يثبت تطابقهما[1].

وقد ثبت أن هيكل كان مزوراً في الصور التي عرضها وافتضح أمره وظهر بُعده عن المنهج العلمي، وقد زعم أن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو «المونيرا» التي تركبت اتفاقاً من الآزوت والهدروجين والأوكسجين والكربون، ثم تطورت على التوالي حتى تكونت جميع الكائنات الحية وبينها وبين الإنسان ـ في زعمه ـ اثنتان وعشرون حلقة، وقد رتبها مستعيناً ببقايا الأحياء في طبقات الأرض ولما لم يجد من الكائنات ما يملأ هذه السلسلة الوهمية بدأ يتخيل كائنات حية لم توجد ليسد بها الفراغ..

فهل تبنى حقائق العلم على التخيل؟.

وهل من الأمانة العلمية الافتراء على التاريخ؟.

٤ ـ دليل الحفريات:

فقد اكتشفوا هياكل وجماجم بشرية قديمة تثبت في نظرهم التطور الذي توالى على الإنسان.

وكل ما اكتشفوه من حفريات للإنسان إنما يؤكد الاختلاف الكمي للإنسان ذاته في مختلف العصور فكونه هنا مارداً وهناك قزماً أو جمجمة هذا

---

(١) راجع كتاب «الفلسفة ومباحثها» د. أبو ريان ص ١٧٨، وتاريخ الفلسفة الحديثة ـ يوسف كرم ص ٤٠٠ وأسس الفلسفة ـ توفيق الطويل ص ١٢.

الإنسان أكبر حجماً من ذاك.. ليس فيه شائبة تطور للإنسان عن نوع آخر، وإنما هو تطور داخل النوع الواحد تبعاً للبيئة وظروف الطقس والمناخ.

وقوانين الانتخاب الطبيعي الثلاثة منقوضة[1]:

فبالنسبة لقانون الملاءمة نجد أن القردة العليا تعايش الإنسان الأول في بيئة واحدة وتخضع معه لظروف واحدة ولا تتطور فتصبح من بني لبشر، كما أن أشجار الغابات منذ أزمان سحيقة تتجاور وتسقى بماء واحد ومع ذلك فهي أنواع شتى وليست نوعاً واحداً.

وبالنسبة لقانون نمو الأعضاء وضمورها حسب الحاجة نجد أن من البشر من يولد بأصابع زائدة عما اعتاده الناس، أو بوضع خلقي شاذ غير مألوف.. فأي قانون يحكم هؤلاء الشواذ من البشر؟.

وبالنسبة لقانون الوراثة نجد أن اليهود والعرب منذ آلاف السنين يقومون بعملية الختان لأبنائهم ومع ذلك فلم يولد إنسان مختون رغم هذه الأحقاب المتطاولة.

بعد هذا نقول:

إن ادعاء المصادفة في نشأة الحياة قول يبرأ منه العلم، وتنفيه حقائق الكون فإن النظر في سمائه وأرضه، حيوانه وطيره، بحره وبره، ثمره وزرعه، كفيل بدحض هذا الافتراء.

وإذا كان الإنسان عناصر مادية فحسب، وليس فيه روح من أمر الله فكيف فشلوا في تحضير الخلية الحية رغم معرفتهم بتكوينها العنصري الكيمائي، ولنردد مع الشاعر الربيع الغزالي[2]:

سر الحياة..... من الذي أحيا به صور الحياة تخالفت ألوانا

---

(١) راجع ص ١٣٥ من الكتاب.

(٢) مجلة الوعى الإسلامى ـ شوال سنة ١٣٩٠.

هـل يستطيـع العلم خلق قلامـة ... أو أن يسـوّي في اليـدين بنـانـا
والنفس يـا للنفس مـا أسـرارهـا ... والعقـل مَنْ أعـلى بـه الإنسـانـا
والجسم صَـورَه سـلالـة طينـة ... تجـري الوراثـة فيه أعجب شـانا
هـاتوا من الجـزار بعض عـظامـه ... أو بعض لحم واصنعـوا إنسـانـا
ثم اصنعـوا عقلاً لـه ودعـوه يمـ ... شـي بينكم هـل يستوي حيـوانا
يـا كـافـر بـالله.. هـل تـرى ... من أنت؟ ماذا في إهابك[1] كانا
جئـت الـوجـود أجئتـه بـإرادة ... قـد شئتهـا وحللت فيـه مكـانـا
وحييت هـل تحيـا بـأمـرك آنـة ... وشببت هـل تنمـو بـأمـرك آنـا
وإذا قَضَيت فهـل بـأمـرك تنتهي ... منـك الحيـاة وتلبس الأكفـانـا
من ذا أرادَ لك الوجود أأنت أم ... أبـواك قـد شاءاك سـاعـة كـانـا
قـد ألقيـاك مجـاجـة ممجـوجـة ... فـإذا المجاجـة سـويت إنسـانـا
من ذا أراد؟ أأنت أم رحم بهـا ... قـد كنت شيئـاً يشبـه الـديـدانـا
يـا دودة في القاع من قـد شاءهـا ... بشـرا سـويـا يمـلأ الأكـوانـا
اللّهَ ربُّ الخلق جـلَّ جـلالـه ... خلق الحيـاة وصـوّر الأبـدانـا

* * *

وإذا تنزلنا عن هذا التحدي وهو خلقهم إنساناً من طين، وفرضنا جدلاً أنهم استطاعوا تخليق إنسان في أنبوبة اختبار بالجمع بين الحيوان المنوي والبويضة[2] ـ رغم محاولاتهم اليائسة ـ فإنهم لم يصنعوا شيئاً أكثر من تهيئة جو لهذا الكائن الحي شبيه بجو الرحم، والله سبحانه هو الذي يتولى تخليقه وتطويره في مراحل خلقه ويمسك الروح فيه إن شاء.. ويبقى

---

(١) الاهاب: الجلد ما لم يدبغ.

(٢) قد يتساءل البعض عن نسب هذا الإنسان الجديد وأقول إنه ينسب إلى من أخذ منه الحيوان المنوي ومن أخذت منها البويضة إن كان بينهما عقد شرعي وإلاّ فهو من اللقطاء له حكمهم تتكفل به الدولة أو أحد رعاياها دون حق النسب.

التحدي القرآني قائلاً: ﴿أفرأيتم ما تمنونَ، أأنتم تخلقونَهُ أمْ نحنُ الخالقون﴾[1].

* * *

وليعلم الماركسيون أننا في بحثنا عن الله سبحانه وتعالى واستدلالنا على وجوده لا نتجاوز وضعنا الإنساني ونجعله سبحانه كمعادلة نحلها أو مركب كيمائي ننتجه أو جزيرة نكتشفها. فأن كل ما نعلمه أن الكون والكائنات جميعاً تسبح بحمد ربها وتدل على أنه الواحد ذو الجلال والإكرام.. ولنصل إلى الحقيقة الكبرى التي عبر عنها القرآن بقوله:
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وأَنَّ مَا يَدعونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيّ الكَبِير﴾[2].

أما محاولة الخوض في ذات الباري وحقيقة صفاته فهذا ليس في نطاق العقل المحدود، ومن المنطق أن نسلم حيث انتهى الشوط، والتسليم هنا هو تسليم العلماء لا الجاهلين، وتسليم العقل لا التقليد.

إن التدين ضرورة تقتضيها الفطرة، وتحتمها مُثُل الأخلاق، وقواعد السلوك وتلح عليها حضارة الإنسان.

وها هو الحال بعد ستين عاماً من استيلاء الشيوعيين على الحكم في الاتحاد السوفييتي، وبعد حملات الدعاية ضد الأديان، والدعوة إلى الإلحاد في المدارس وأجهزة الاعلام ـ اكتشفوا أن المواطنين السوفييت ما زالوا متدينين!!..

جاء ذلك[3] في إعلان رسمي صدر عن الحكومة السوفيتية يؤكد أن هناك واحد من كل خمسة من الشباب السوفييتي يؤمن بشكل أو بآخر بدين من الأديان، وهذا يعني أن حوالي ٣٣ مليوناً من الشباب هناك ممن تزيد

---

(١) سورة الواقعة، آية: ٥٨.
(٢) سورة الحج، آية: ٦٢.
(٣) صحيفة الأخبار (١٠/١٢/١٩٧٦).

أعمارهم عن ١٨ عاماً يعتبرون من المؤمنين بالأديان.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن ١٠٪ من الشباب يمكن وصفهم بالمترددين بين اعتناق عقيدة دينية أو لا فسنجد أن العدد الإجمالي للذين تأثروا بالأديان منهم يبلغ ٥٠ مليوناً.

جاءت هذه الأرقام في تعليق نشرته جريدة «الديلي تلجراف» البريطانية بعددها الصادر في اليوم الأخير من نوفمبر ١٩٧٦ لمحرر الشؤون الشيوعية بها «دافيد فلوبد» الذي كان يعلق على كتاب نشر مؤخراً في لينينجراد بعنوان «الرأي العام والدعاية الإلحادية».

مؤلفا الكتاب: د. دانيلوف، وف كونيسكاي ـ لفتا نظر القراء إلى الحقيقة التي تؤكد أن معظم هؤلاء الشباب المتدينين من المواطنين الذين ولدوا وتعلموا في الاتحاد السوفييتي، وكشفا في نتائج استطلاع للرأي قاما به في لينينجراد عن أن ٤١٪ من الذين سئلوا اعترفوا بأنهم يحتفلون بالأعياد والمناسبات الدينية في منازلهم أو منازل أصدقائهم.

ويضيف الكتاب أنه في الكثير من الإجابات نستطيع أن نلمس الاعتراف بأثر العقيدة على الأخلاق، وتبين أن واحداً من كل عشرة من الطلاب الذين سئلوا اعترضوا على الدعاية السوفييتية الناطقة بالإلحاد، كما عبر واحد من كل خمسة من المثقفين الروس عن وجهة نظره في الأديان بقوله: من الممكن أن يكون هناك من يؤمنون بالأديان لو وجدوا هذه الأديان معقولة!.

ومن المتوقع أن يكون الرقم الحقيقي للمؤمنين بالأديان في الاتحاد السوفييتي أكبر بكثير من هذا الرقم الذي كشف عنه الإعلان الرسمي.

د ـ الاتحاد السوفييتي والإسلام:

لنقرأ بتدبر قول المثقفين الروس:

«من الممكن أن يكون هناك من يؤمنون بالأديان لو وجدوا هذه الأديان معقولة».

إن الأديان المعقولة لن تكون في اليهودية المادية ولا في نصرانية الثالوث ولا في الأديان العاجزة عن مواجهة العقل وملاءمة التقدم العلمي، فضلاً عن قصورها في تقديم منهج للحياة أو دستور للدولة.

وساحة المواجهة قاصرة على الشيوعية والإسلام، إذ الإسلام هو نداء العقل الراشد والفطرة السليمة وهو بالنسبة للمسلم نظام حكم وقانون اقتصاد وعقيدة في الكون وما وراءه، وشريعة تجمع كل مطالب الإنسانية النبيلة.

وقد اتخذت المواجهة أشكالاً متعددة نجملها فيما يلي:

١ ـ التماس العون من المسلمين لشد أزر الثورة الشيوعية في وجه المناوئين لها في الداخل وأعدائها في الخارج، وتبلور ذلك في النداء الذي أصدره المجلس الحاكم عام ١٩١٧ عقب قيام الحركة الشيوعية بشهر واحد تقريباً.. وجاء فيه[1]:

«أيها المسلمون في روسيا!

يا من انتهكت حرمات مساجدكم وقبوركم واعتدي على عقائدكم وعاداتكم وداس القياصرة والطغاة الروس على مقدساتكم..

ستكون حرية عقائدكم وعادتكم وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم.. تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة، فشدوا أزر هذه الثورة وخذوا ساعد حكومتها الشرعية.

* * *

أيها المسلمون في الشرق!

أيها الفرس والأتراك والعرب، والهندوس! أنتم جميعاً يا من

(١) الإسلام في وجه الزحف الأحمر ـ الشيخ محمد الغزالي ص ١٢٢.

وطىء الأوروبيون القراصنة أرضكم وتاجروا بأرواحكم وأموالكم، وحرياتكم قرناً بعد قرن... لنتقدم سوياً في عزم وصلابة نحو سلم عادل ديمقراطي.

أيها المسلمون في روسيا!

أيها المسلمون في الشرق!.

إننا ـ ونحن نسير في الطريق الذي يؤدي بالعالم إلى بعث جديد ـ نتطلع إليكم لنلتمس عندكم العطف والعون».

* * *

٢ ـ لم يكن هذا النداء إلاّ محاولة لكسب المسلمين وقتاً من الزمن حتى توطد أركان الانقلاب الشيوعي، ثم ينقض عليهم لما يعلمونه من قوة المسلمين الروس وحسن بلائهم في سبيل الله وعظيم جهادهم دفاعاً من العرض والوطن، ونصرة لدين الله وشريعة الإسلام على عهد روسيا القيصرية. وفي إبريل سنة ١٩١٨ أصدر «لينين» أمراً بالزحف على البلاد الإسلامية دون إنذار سابق فأخذت الدبابات تحصد المدن حصداً وتدك الحصون والقلاع فتهاوت المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى بعد قتال مرير ودفاع باسل.

ومنذ ذلك الوقت والإرهاب الشيوعي يحكم قبضته على المسلمين في الاتحاد السوفييتي بوسائل الإبادة الجماعية والتهجير لمناطق النفي في سيبيريا وهدم المساجد وإغلاق المدارس العربية وقتل علماء الدين وإلغاء النظم الإسلامية.

٣ ـ أدرك القائمون على أمر الإرهاب الشيوعي في موسكو أن القضاء على الإسلام لا يتحقق بإغلاق المساجد فقط، فالمسلم يعتبر الأرض كلها مسجداً بل لا بدّ من القضاء على نظام اجتماعي بأسره، بكل ما فيه من عادات وتقاليد، فظهرت مجموعة دراسات غير علمية عن الإسلام وصلت في إسفافها إلى حد أن زعم أحد كتابهم عام ١٩٤٦ أن

محمداً ﷺ لم يوجد قط وأن القرآن لم يؤلف إلاّ في القرن الحادي عشر وتم ذلك بواسطة طائفة تنحدر من العرق الآري، وآخر الروايات السوفييتية عن الإسلام تقول: إن ظهوره جاء محققاً لرغبة الطبقات الحاكمة في تبرير الطبيعة الاستثمارية للنظام القائم، وتبرير عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية، إلاّ أنها تعدد مع ذلك لظهور الإسلام أسباباً إضافية منها تدهور تجارة «الترانزيت» في مكة، ورغبة الطبقات الحاكمة في التوسع الإقليمي.

كذلك أدرك الشيوعيون دور الإسلام العالمي، وتأهبه لقيادة الإنسانية من جديد بعد أن أفلست معها كافة النظم والمذاهب، فعارضوا الوحدة الإسلامية وقالوا عنها بالحرف الواحد في دائرة المعارف السوفييتية:

«هي حركة دينية قام بها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصحاب الأملاك والبرجوازيون وعلماء الدين الأتراك، ثم انتشرت في الطبقات الثرية في البلاد الإسلامية الأخرى. وتعمل الجامعة الإسلامية على ضم جميع الشعوب التي تدين بالإسلام تحت لواء دولة واحدة، بدعوى أنها تكافح دخول رؤوس الأموال الأجنبية في بلاد الشرق الإسلامي.

وتستغل الطبقات الحاكمة في البلاد الإسلامية فكرة الوحدة الإسلامية لإذكاء نعرة التعصب الديني وبغض الأجنبي، كيما تثبت مركزها وتقضي على الحركات الثورية التي تقوم بها الطبقات العاملة في الشرق، إلاّ أن الهزيمة التي أنزلها الشعب السوفييتي بالمتطفلين الأجانب وعملائهم كانت ضربة قاصمة للجامعة الإسلامية، وحينما كانت ألمانيا الهتلرية قبل الحرب العالمية الثانية تستعد للاعتداء على روسيا خلقت وموّلت في الشرق الأدنى منظمات إسلامية لتستعين بها».

وفي المؤتمر الروسي للعلوم والأبحاث النظرية المنعقد في نهاية عام

١٩٦٠ قدم «كوليت» رئيس قسم الفلسفة في أكاديمية جمهورية تركمان تقريراً عن:

«التمسك بالشعائر والاحتفالات الإسلامية وما تلحقه من أضرار بالأوضاع التي تسود المجتمكع الشيوعي».

وكان الموضوع الرئيسي لهذا المؤتمر هو: مخلفات الدين الإسلامي ووسائل التغلب عليها[1].

* * *

٤ ـ إن الأمة العربية هي حاضنة الإسلام، والعروبة جزء من الإيمان باعتبار أن القرآن نزل بلسان عربي مبين... ولهذا فإن الاتحاد السوفييتي يريد دائماً أن يتغلغل وسط هذه الأمة ليمسك بمفاتيح العالم الإسلامي، ويقضي على قلبه النابض وعقله المفكر.

ويكفي أن أشير إلى مواقف الاتحاد السوفييتي من العالم في رموز يسيرة:

١ ـ الاتحاد السوفييتي يضمن بقاء إسرائيل ويعنيه استذلالها للعرب بحكم النسب والصهر الذي يربط الشيوعية والصهيونية العالمية.

٢ ـ ثورة العراق الشيوعية سنة ١٩٥٨ أغرقت العراق في بحار من دماء أبنائه.

٣ ـ الحزب الشيوعي السوري بقيادة خالد بكداش وقف في وجه الوحدة المصرية السورية، وعمل على إسقاطها بمؤازرة روسيا حتى تم الانفصال سنة ١٩٦١.

٤ ـ السيطرة السوفييتية على مصر في عهد عبد الناصر وما تبعها من ويلات

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع:

أ ـ الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط ـ ولتر لاكود ـ ترجمة مجموعة من الأساتذة الجامعيين ص ٧٨، ٢٠٥، ٣٧٧. ـ

ب ـ مشكلات الأسرة والتكافل د. محمد البهي ص ١٠٣ ـ ١٠٨.

ودمار حتى كانت نكسة ١٩٦٧ التي بدأت بفكرة أسرها الروس إلى «أنور السادات» أثناء زيارته لموسكو في مايو ١٩٦٧ وأوهموه أن لديهم معلومات دقيقة عن هجوم متوقع من إسرائيل على سوريا، وانتهت بأن حشدت القوات المصرية في صحراء سيناء، ثم أيقظ السفير السوفييتي عبد الناصر بعد منتصف ليلة ٤ يونيو ١٩٦٧ وطلب إليه عدم البدء بالهجوم، فإذا بالضربة الخاطفة المدمرة من إسرائيل للقوات العربية!!.

نقد موقف الماركسية من المجتمع

أ ـ مناخ الشيوعية:

لو استقام الناس على منهج الحق ما كان في الدنيا بائس ولا محروم، ولو استجابوا لنداء الحياة الإلهي ما شقي منهم إنسان ولا تسلط عليهم طاغوت.. ويوم زاغت الأبصار وتاهت العقول عن دين الله وصراطه المستقيم توالت على الإنسانية ويلات وويلات. وما بقي باطل إلاّ في غيبة الحق، وما شاع منكر إلاّ في غفلة المعروف، وما ساد ظلم إلاّ في استكانة العدل.

وللشيوعية مناخ يساعد على نموها وانتشارها.

فالظلم الاقتصادي وما يتبعه من طغيان المال والتكاثر فيه واستغلال ذوي الحاجات..

والانحلال الاجتماعي وما يترتب عليه من تفكك الأواصر وانعدام الثقة واختلال الأمن.

والفساد السياسي وما ينجم عنه من عبث بالقانون واستهتار بالقيم وتحكيم للأهواء واستذلال للشعوب.

كل ذلك يهيء الفرصة لشعب مكلوم وجماهير مستضعفة أن تتحرك ولو إلى الجحيم.. أضف إلى ذلك مشكلة الشباب في المجتمع المعاصر،

حيث يعيش في حيرة وقلق واضطراب، ولا يواجه حياة المسؤولية إلاّ في العقد الثالث من حياته تقريباً، وتكتنفه ظروف تعمق في نفسه ثورة الرفض وتطلق عنان الشهوة وروح المغامرة.

وفي الوقت ذاته تقف ملل الأديان الباطلة عاجزة عن مواجهة حقائق العلم، وتقديم الجواب الصحيح عن تساؤلات البشر في الكون وما وراءه..

ب ـ صراع الفكر:

والواقع أن هذه العوامل كلها مظاهر من الانحراف عن المنهج الإلهي الذي جاء على لسان الرسل جميعاً، فما كانت الرسالات إلاّ ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ قال تعالى: ﴿ لقَد أرسلْنَا رسُلنَا بالبيّنَاتِ وأنزَلْنا مَعهُمْ الكتَابَ والميزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وأنْزَلنَا الحَديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ ولِيَعْلَمَ اللَّهُ من يَنصرُه ورسلَه بالغيبِ إنَّ الله قويٌّ عزيز ﴾[1].

ولنا في هذه الآية لمحة تدبر:

١ ـ ﴿ لقَدْ أرسَلنَا رُسُلَنا بالْبَيِّنَاتِ ﴾.

فجميع الرسالات الإلهية ـ في حال نقائها الأول ـ واضحة الحجة، قوية البرهان، ظاهرة الحق، حتى تنقطع أعذار الناس وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة.

٢ ـ ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكِتَابَ وَالْميزَان ﴾.

وكل الرسل أتوا قومهم بمنهج إلهي يوضح قيم الحياة وطرائق السلوك ونظم المعاملة في إطار من العدل الخالص والدقة المتناهية.

٣ ـ ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحَديدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَاسِ ﴾.

الحق بغير القوة يتيم يستدر بعض الدموع.. وهيهات أن

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٥.

يستخلص الدمع حقاً. . إن الجهاد ضريبة الإيمان، والمؤمنون دائماً في صراع من أجل الحق والخير.

وإذا استعرضنا تاريخ الرسالات الإلهية فسنجد صدق ما نقول:

وعلى سبيل المثال نجد أن رسالة سيدنا لوط عليه السلام اتجهت نحو محاربة الانحراف الخلقي الذي فشا في قومه حيث أتوا فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين. . قال تعالى:

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونَ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَومٌ تَجْهَلُون ﴾[1].

وجاء شعيب عليه السلام يجاهد من أجل المحرومين، ويطالب بالعدل الاجتماعي قال سبحانه: ﴿ أَوْفُواْ الكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المخسِرين وزِنُوا بالْقِسْطَاس المُسْتقيم ولا تَبْخِسُوا النَّاسَ أشياءَهُمْ ولا تَعْثُوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدين ﴾[2].

وواجه موسى عليه السلام قمةَ الفساد السياسي والظلم والجبروت، متمثلاً في فرعون وقارون وهامان. . أوّلهم يمثل السلطة السياسية العاتية التي قبضت بيد من حديد على شعبها وأذاقتهم صنوف الهوان، وثانيهم يمثل الرأسمالي في كبريائه وغروره، وثالثهم يمثل بطانة السوء التي تزيف الحقائق وتصوغ الأساطير وتخدع الناس، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبينٍ إلى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذّابٌ فَلَمّا جاءَهُمْ بالحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلوا أبناءَ الذينَ آمَنُوا واسْتَحيُوا نِساءَهُمْ وَما كيدُ الكافِرينَ إلاّ في ضَلالٍ ﴾[3].

وقد وضع القرآن الإطار العام لذلك الانحراف والفساد في صورة

---

(١) سورة النمل، آية: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سورة الشعراء، آية: ١٨١ ـ ١٨٣.

(٣) سورة غافر، آية: ٢٣ ـ ٢٥.

طغيان المال بأربابه، وإهمال العقل لتأملاته.. فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِين ﴾[1].

ويؤكد القرآن العلاقة الوطيدة بين الترف المادي والتخلف العقلي فيقول: ﴿ وكذلكَ ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قريةٍ مِن نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَا وجدْتُمْ عليهِ آباءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾[2].

وهكذا حاولت الرسالات الإلهية إصلاح دنيا الناس وتنظيم شؤون حياتهم، غير أن هذا الإصلاح كان مرتبطاً بغاية أسمىٰ ورؤية أعمق هي استمرار الوجود الإنساني، واستئناف الحياة في غد مشرق بالرجاء ﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضراً وَمَا عَملتْ من سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينَها وبينه أمداً بعِيداً ﴾[3].

ولم يكن هذا الإصلاح بالأمر اليسير بل وقف الناس فريقين: فريق يتحمل عبء المبادىء والدعوة لها، وفريق يتحداها ويعوق مسيرتها فنشأ الصراع بين الحق والباطل، وهو صراع قديم قدم الإنسان، عميق عمق التاريخ، باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وبداية الصراع لم تكن على ظهر هذه الأرض، وإنما وقعت حيث أمر الله بالسجود لآدم فأبى إبليس اللعين وقال: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلقتَ طِيناً ﴾ ثُمَّ أخذ على نفسه العهد فقال: ﴿ لأقعُدَنَّ لهم صراطِكَ المستقيم ثُمَّ لآتِيَنهُم من بينَ أيدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهم وَعَن أيمانِهم وَعَن شَمَائِلِهمْ ولا تجدُ أكثرَهم شَاكِرين ﴾[4].

---

(١) سورة سبأ، آية: ٣٥.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٣٠.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٦ ـ ١٧.

وعلى مدار الرسالات الإلهية وقف الباطل بشتى صوره وأشكاله من طواغيت وأصنام، وجاهلية وهوى، وشهوات ونزوات ـ وقف في وجه الحق الصراح ونبل مقصده وسمو هدفه وكريم غاياته.

وتبلور الصراع في طرفين: مؤمن وكافر.

وهدف المؤمن قيادة العقل الراشد لرؤية أعماق الكون والطبيعة، وتصحيح مفاهيم الناس في السعادة والشقاء، وتنقية الفطرة من غوائل السوء ونزعات الإثم.

وهدف الكافر الإبقاء على طفولة العقل ودنايا النفس ومتاع الدنيا الرخيص.

وسبقت كلمة الله أن يستمر هذا الصراع مصحوباً بحتمية تاريخية حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1].

جـ ـ حضارة الأديان:

وصراع الفكر هذا هو الذي صاغ التاريخ كله ولن تفهم حضارة مصر وفارس والصين والإغريق إلاّ في إطار الدين ـ بغض النظر عن حقيقته أو أسطوريته ـ، فقد تفجرت منه علوم ومعارف وفنون وارتبطت به منشآت وهياكل وقصور.

ففي مصر الفرعونية عاش الناس بالدين وللدين، وقامت معابد الكرنك والأقصر وأهرامات الجيزة، وتقدمت علوم الطب والهندسة، وازدهرت فنون النحت والتصوير والنقش والكتابة ـ لتثبت أن الإيمان صانع المعجزات.. !!.

(١) سورة الحج، آية: ٤٠.

وحدثنا التاريخ عن حضارة بابل وآشور حديثاً بلغ حد الأسطورة في روعة البناء وجمال الطبيعة وسطوة الملك، فهل يمكن فهم هذا التاريخ إلاّ من خلال قصة نوح والطوفان وقصة إبراهيم الخليل وجهاده مع قومه وجداله مع رؤسائهم؟!.

وهل ينسى التاريخ دور موسى عليه السلام وبني إسرائيل من بعده في صياغة فصوله وأبوابه؟!.

ومتى انتقلنا إلى الصين القديمة وارتقينا سورها العظيم وتذكرنا ما قدمته للعالم من اختراعات وصناعات هل ننسى حكيمها «كونفوشيوس»؟!.

وإذا اتجهنا إلى الإغريق فهل من سبيل لمعرفة تاريخهم إلاّ من خلال عالم الآلهة كما تخيله «هوميروس» وعالم المُثل كما نادى به «أفلاطون» الإلهي، والدولة العالمية كما ناضل من أجلها الإسكندر المقدوني؟!.

ولما قامت النصرانية واحتضنتها «روما» وبسطت لواءها على أطراف الأرض قروناً من الزمان، ودارت الحرب سجالاً بينها وبين الفرس، هل كان ذلك في غيبة الدين أم كان باسمه وتحت لوائه؟!.

ويوم أن أشرقت الأرض بنور ربها وعرف الناس طريقهم إلى القرآن المجيد واستلهموه رشدهم ـ قادهم إلى أمة هي من التاريخ غرته، ومن الزمان ربيعه، وأبدعوا حضارة شملت العالم من أقصاه إلى أقصاه، وحفظت للإنسانية قرائحها وجادت عليها بأسمى ما ترنوا إليه في العلم والأدب.. في الأخلاق والاجتماع.. في الحضارة والنهضة.. وكانت المراكز الإسلامية في الأندلس وصقلية والقاهرة ودمشق وبغداد مشاعل أضاءت الطريق للحضارة الحديثة!!

إن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله، والمواقف الحاسمة فيه مرتبطة بالدين، وأبوابه هي قصة الصراع الفكري بين الحق والباطل. بين الإيمان والكفر.. غير أن الحق قد يكون صراحاً، وقد يكون مغلفاً بهوىً

أو مطلسماً ببدعة، والحقيقة التي برزت في هذا الصراع المرير واعتنقتها شعوب الأرض هي تلك الفطرة المركوزة في النفس:

بأن الحياة لا بدّ لها من واهب.

وأن الكون لا بدّ له من مدبر.

وأن للإنسان حياة أخرى للحساب والجزاء.

وكل هذا ينقض على الشيوعيين زعمهم بأن التاريخ يفسر تفسيراً مادياً، وأن العامل الاقتصادي هو محور الكون والطبيعة.

* * *

د ـ نظرة القرآن إلى العامل الاقتصادي:

ونحن ـ بهذا ـ لا ننكر أثر العامل الاقتصادي بل نجد من غلواء الشيوعيين في تأليهه.. ومتى صوبنا النظر إلى القرآن الكريم فسنجد عناية به تتناسب مع قيمته، وإليك بعض الأضواء على جوانب هذه النظرة القرآنية[1]:

أولاً: نظرته إلى المال:

سماه القرآن خيراً في قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ.. ﴾[2].

وفي قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[3].

كما صانه من التبذير والإسراف حيث قال جلَّ شأنُهُ: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾[4].

---

(١) دراسات قرآنية في العقيدة والأخلاق والاجتماع ـ الدكتور سيد أحمد رمضان المسير (مخطوط).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٠.

(٣) سورة العاديات، آية: ٨.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٢٦ ـ ٢٧.

وقد بلغ القرآن في الحفاظ على المال والترفع به عن الامتهان درجة عظيمة ومبلغاً خطيراً، حيث حرم الربا تحريماً قاطعاً وجعله من أكبر الكبائر، وتوعّد من لا يتركه بحرب من الله ورسوله، كذلك حرم القرآن جميع المعاملات التي تنطوي على غش أو رشوة أو أكل أموال الناس بالباطل أو تطفيف لكيل أو ميزان قال تعالى: ﴿ ولا تَأْكُلُوا أموالَكُمْ بينَكُمْ بالباطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكّامِ لِتَأْكلُوا فريقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بالإِثْمِ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهم أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُثُونَ لِيومٍ عَظِيمٍ يَومَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العَالَمِينَ ﴾.

كما حثَّ القرآن الكريم على استثماره والعمل على تنميته قال تعالى: ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾[2].

يريد ـ والله أعلم ـ أن من يستحق العطاء إنما يعطي من جهة نماء المال وزيادة الثروة، وذلك باستعمال المال فيما يعود بالربح على مالكه من تجارة وصناعة.

ثانياً: القرآن والصناعة:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن صنعتي البناء وعمل الدروع وهما من الصناعات التي تتوقف عليها حياة الناس إذ البناء يمثل جانباً من جوانب التعمير، وعمل الدروع يمثل جانباً من جوانب القوة الدفاعية التي تحيا عليها الأمة وترتكز على أصولها. ذكر أن هاتين الصناعتين قد وجدتا على يد نبيين عظيمين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

(٢) سورة النساء، آية: ٥.

﴿ وإِذْ يَرْفَعُ إبرَاهِيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تقبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾[1].

وقال في شأن داود عليه السلام: ﴿ وعلَّمْناه صنعةَ لبوسٍ لكُمْ لِتُحَصِنكُمْ من بأسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُون ﴾[2].

وما أبدع قوله سبحانه في هذه الآية ﴿ لَكُمْ ﴾ يعني أن تعليم الله تعالى هذه الصنعة لنبيهم كي يستطيعوا الدفاع عن الحق. . ثم إن قوله في ختام الآية: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ يدل على أن تعليم الصنعة نعمة من أعظم نعم الله التي يستحق عليها سبحانه وتعالى كل شكر وثناء.

ونرى صناعة أمتعة البيوت وأثاثها ظاهرة في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلودِ الأنعامِ بُيوتاً تَسْتَخِفُونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وأَوْبَارِهَا وأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِين ﴾[3].

كما نرى ذلك أيضاً في قوله تعالى، حكاية عن سليمان: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمِلُوا آلَ دَاودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[4].

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿ اعْمِلُوا آلَ دَاودَ شُكْرا وقَلِيل من عِبَادِي الشَّكور ﴾ والقرآن يلفت النظر إلى معدن الحديد الذي يلعب الآن دوراً خطيراً في إقامة الصناعات، فهو الذي سارت عليه البواخر في عرض البحر، وسارت فوقه وبه القاطرات، وحلقت به الطائرات وأصبح الآن هو

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٧.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٨٠.

(٣) سورة النحل، آية: ٨٠.

(٤) سورة سبأ، آية: ١٣.

العنصر الفعال في كل ما جد واستحدث من صناعة وعمارة، فيقول الله تعالى: ﴿ وأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ومَنافِعُ للنَّاسِ ﴾ ثم إنَّ قولَهُ تعالى بعد ذلك: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ورُسُلَهُ بالْغَيْبِ ﴾ يفيد بوضوح أن هذا المعدن وما فيه من منافع يجب أن يكون رصداً ووقفاً على الدفاع عن الحق الذي أوحى الله به.

ثالثاً: القرآن والزراعة:

وكم للزراعة في القرآن من آيات وآيات إذْ هِيَ الأصل الأول في حياة الناس المادية، قال جل ذكره في سورة الشعراء: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوا إلى الأرضِ كَمْ أنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريمٍ ﴾. وقال تعالى في سورة (ق): ﴿ والأَرْضَ مددناها وألقينا فِيها رَواسِيَ وأنبتنا فيها من كل زَوْجٍ بَهِيج ﴾.

نرى في الآية الأولى وصف النباتِ الذي يخرجُ من الأرضِ بأنَّهُ كريم، ويعني ذلك أنه يمد الإنسان بما هو ضروري له، من غذاء نافع كامل وما أعظمه من كريم!!.

ونرى في الآية الثانية وصف النبات بأنه بهيج أي حسن المنظر تأنس إليه النفس وتستلذ له العين ويطرب له القلب، فقد جمع النبات بتدبير الله وقدرته بين الغذاء والمتعة، فحقا: ﴿ إنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يأْتِيه الباطلُ مِنْ بَيْنَ يديهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تنزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حميدٍ ﴾.

وقال في سورة يس: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الميتةُ أحييناها وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأكُلُون، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَناتٍ مِنْ نَخِيلٍ وأَعْنَابٍ وفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ العُيُونِ لِيَأْكُلُواْ مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عملَتهُ أيديهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُون سُبْحان الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاج كُلها مِمَّا تنبت الأَرْض وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُون ﴾.

إلى غير ذلك من عديد الآيات التي لا يتسع المقام لذكرها.

رابعاً: القرآن والتجارة:

أما التجارة فقد ذكرها الله تعالى في القرآن منَّة على قريش خاصة

وعلى الناس عامة وطلب إليهم أن يعبدوه من أجلها ويشكروه عليها.

فقال عز من قائل: ﴿ لإيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحلةَ الشتَاءِ والصيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جَوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾.

وقال في سورة البقرة في آية المداينة بعد أن طلب من الدائن أن يستوثق بالكتابة على المدين، واستثنى من ذلك التجارة الحاضرة، قال سبحانه: ﴿ إِلَّا أَنْ تَكونَ تجارةً حاضرةً تُديرُونَها بينكم فلَيسَ عليكُمْ جُناحٌ ألَّا تَكْتُبُوهَا وأشهِدُوا إذا تَبَايَعْتُمْ ﴾.

وبعد فإن القرآن الكريم يتصل ـ كما قدمنا ـ بالحياة العامة أقوى اتصال، إلّا أن الميزة التي امتاز بها القرآن واختص بها دون غيره هي أن هذه الأمور المتقدمة من زراعة وصناعة وتجارة لا تكون مقصودة لذاتها، ولا أن يستمتع بها الناس لذات الاستمتاع فذلك شأن الكافرين، قال تعالى، في سورة القتال (محمد): ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُل الأَنْعَامُ والنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ﴾.

هـ ـ تلاحم الطبقات:

وضح الآن أن هناك حتمية تاريخية للصراع الفكري بين الحق والباطل، ونقرر هنا أن ذلك الصراع ليس بالطبقي؛ لأن كل طرف ينضوي تحت لوائه أصناف شتى من بني البشر، ونقدم على سبيل المثال حملة لواء الدعوة الإسلامية، لقد كانت الطليعة المسلمة تمثل تمثيلاً صادقاً وأميناً للإنسانية بأسرها، فقد جمعت في صفوفها الأولى ممثلين عن فئات الإنسانية من مجتمع الرجال ومجتمع النساء، ومجتمع الشباب ومجتمع الرقيق الذي كان سائداً حينئذ.

فها هو أبو بكر الصديق أول من آمن من الرجال.

وها هي خديجة بنت خويلد، حاضنة الإسلام.
وها هو عليّ بن أبي طالب، فتى الإسلام الأول.
وها هو بلال بن رباح، نموذج الثبات والتضحية.

ومن جهة أخرى فإن الطليعة المسلمة حطمت فوارق العرق وشذوذ العصبية، والتقى جنباً إلى جنب بلال الحبشي، وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وفيروز الديلمي بأبي بكر وعمر وعثمان وحمزة السادة القرشيين!.

كما تصافح أهل الصُّفة وفقراء المسلمين مع أصحاب الثراء العريض من أغنياء المسلمين..

وعمر هو القائل:
أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا (بلالاً الحبشي).

وأبو ذر الغفاري هو الذي وضع خده على الأرض وبكى وطلب إلى العبد أن يطأه عندما عاقبه الرسول ﷺ وقال له:
«أعيّرته بأمه؟!.
إنك امرؤ فيك جاهلية» رواه البخاري.

ومن الصور الرائعة حقّاً أن يتولى أسامة بن زيد بن حارثة قيادة جيش جرار إلى خارج الجزيرة العربية في فترة قاسية تموج فيها البلاد بحركة تمرد عاتية (هي حركة الردة)، وتعاني أزمة سياسية بعد انتقال المصطفى إلى الرفيق الأعلى.

والجنود هم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وأرباب الحسب والنسب ووجوه القوم وسادتهم.

والقائد هو شاب في الثامنة عشرة من عمره، وكان أبوه زيد بن حارثة رقيقاً ثم حرّره الرسول ﷺ!!.

وتبلغ الصورة منتهى الروعة عندما نرى الخليفة الأول يودع هذا

الجيش وهو يسير في ركاب قائده ويقول: «وما عليَّ أنْ أغبر قدمي ساعةً في سبيل الله..!».

* * *

إن الشيوعيين حين يقولون بصراع الطبقات يقعون في مجموعة خطايا فاحشة:

أولاً: يكذبون على التاريخ، وها نحن قد استعرضنا حقيقة الصراع التاريخي وتبين أنه صراع فكري.

ثانياً: يعاندون الطبيعة، فقد قامت الحياة على التفاوت والتوزيع لتتكامل في النهاية قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بعضَكُمْ فَوقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُم فِيمَا آتَاكُمْ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ ورَفَعنَا بعضَهُمْ فَوقَ بَعضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ورحمةُ ربّك خيرٌ مما يجمعون ﴾[2] والتسخير هو التكليف وكل إنسان له من التكليف نصيب كما قال ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته».

ثالثاً: يسيرون وراء أوهام طائشة وسراب خادع، فأسطورتهم في المجتمع لن تتحقق بالصورة التي يرونها من زوال الدولة ورفع العقوبات والاستجابة لكل مطالب الحياة المادية.

وإنما يمكن أن تتحقق في صورة العدل الاجتماعي والسلام الطبقي والتعاون البنّاء في ظلال الرحمة العامة، وهذا هو ما دعا إليه الإسلام وطبقه الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون والأئمة العادلون من حكام المسلمين..

ويتلخص ذلك في الضرورات الخمس وهي:

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٦٥.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣٢.

١ ـ الدين:

لأنّه صمام الأمان في النفس البشرية وبدونه لا يبقى فيها إلاّ الشر المستطير، وهو عقيدة في الله وأسمائه الحسنى وصفاته القدسية، والملائكة الكرام البررة، والكتب المنزلة لهداية البشر إلى الحق والصراط المستقيم، والنبيين الّذين اصطفاهم الله من خلقه، واليوم الآخر يوم تجد كل نفس ما عملت..

٢ ـ النفس:

وحقوقها الفطرية في الحياة والحرية والعلم والكرامة، إذ الفرد هو الإنسانية في صورة مصغرة وأي مساس بحقوقه هو اعتداء على الإنسانية جمعاء قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أو فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾[1].

٣ ـ المال:

الملكية الخاصة مصونة متى راعت قواعد الكسبَ التي تتلخص في كلمة واحدة هي «الحلال» واتجهت في مصرفها إلى مصلحة الفرد والمجتمع، وأدت واجبها الشرعي الذي يعبّر عنه بكلمة واحدة هي «البر».

٤ ـ العقل:

هو مناط كرامة الإنسان وآلة الاعتقاد الديني وقانون الحياة وملتقى الإنسانية، وقد حفظه الشرع من كل مسكر ومخدّر وأبقى يقظته تامة وزهرته يانعة.

٥ ـ النسب:

وقد بلغ تقدير الإسلام له مبلغاً عظيماً، فشرع الزواج وحثّ عليه وحرم الزنا والفواحش وصان العرض والشرف.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٢.

وهذه الضرورات الخمس لكل إنسان قد تعهدها الإسلام داخل النفس الإنسانية، وأصّل حبها والالتزام بها وتعقب شواردها في المجتمع بما يسمى في الفقه الإسلامي ـ الحدود والتعزيرات ـ وجعل القيّم عليها إماما عادلاً يجب نصبه على الأمة.

إن مجتمع الإسلام يتكافأ أبناؤه، وهم جسد واحد تعمه الفرحة وتؤلمه الشوكة، وقوامه الفرد المسلم العزيز بإيمانه، القوي بإخوانه، الحر بعقله وجسده، الكريم بسلوكه وخلقه.

لكن الشيوعية لا تثق بالإنسان فالمتدين رجعي، والغني برجوازي حتى المواطن الشيوعي نفسه لم يسلم ووصف بأنه بيروقراطي!.

وإن الماركسيين ليقلبون الحقيقة، ويستعملون دائماً أسلوب تزيين القبيح حين نسمع منهم مثل هذه العبارات:

ـ الحقد النبيل هو ركيزة الشيوعية.
ـ ديكتاتورية البروليتاريا هي قمة الديمقراطية.
ـ الحرب الأهلية أصلح مناخ لنمو الطبقة العاملة.
ـ العنف الثوري والإرهاب الأحمر هما وسيلة تأمين الثورة..

ألا ليت الناس يعلمون:

أن قياصرة الكرملين، وطواغيت الماركسية في كل زمان ومكان هم ذئاب البشرية يفترسون قيمها ومثلها العليا.

وهم قطاع طرق يسرقون ثروات الشعوب.

وهم كهنة أصنام يخدعون ضعاف العقول ومرضى النفوس.

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.